
KUNSTRÅDET
Danish Arts Council
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
نظام الأشياء
مورتن سونجورد
رواية
ترجمة: جمال جمعة

نظام الأشياء

Tingenes orden

نظام الأشياء

Tingenes orden

رواية

تأليف

مورتن سونجورد

Morten Søndergaard

ترجمة

جمال جمعة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الدنماركي
Tingenes orden
Oversat af Jamal Jumá

Supported by Danish Arts Agency – Literature Centre

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-993-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

1

الفصل 1

ذات مرّة كان هنالك ممرّ، وفي نهاية ذلك الممرّ كان ثمّة باب، وخلف الباب كان ثمّة ممرّ، وفي هذا الممرّ سُمعتْ هنالك خُطى، كان ثمّة رجل يخطو في الممرّ متجهاً نحو باب، وصوت الخطى يزداد قوّةً، ثمّ انكمشت تلك القوّة، والباب الذي في نهاية الممرّ أفضى نحو فضاء مفتوح، وممشى يخترق حقلاً أخضر يفضي إلى قلب غابة، وعلى ذلك الممشى خطى رجل بصحبة صبيّ على كتفيه، وكان الوقت صيفاً والشمس تشرق، وكان الصبيّ يمتطي صهوة العالم، يتأرجح جيئة وذهاباً، وكان العالم بلا وقت، وكان على ثقة أكيدة تقريباً من أنّه سوف لن يموت، والشحارير تزقزق في أعالي غصون الأشجار، وفوقهم مرّ عابراً سربُ زرازير تهاجر، ومضى الاثنان نحو المستنقع لصيد الأسماك، وبعدها كرّا عائدين عبر الغابة، وكانا حصانين يلعبان ويعدوان في الحقل الأخضر، وفي نهاية الحقل كان ثمّة باب، وخلف ذلك الباب كان ثمّة ظلام.

الفصل 2

زرازيـــر في الهواء، الأجنحة تخبط، زرازير في أسراب، أمواج من أجـــساد خفـــيفة. الرصاصـــة الصغيرة تتمدّد ثمّ تنكمش على نفسها، والـــسرب يقـــرّر أن يضرب ضربته فوق سلّم الهواء اللامرئيّ، بعدها يهبطون ويواصلون اللعب فوق الحقول.

تعلّم أن يأخذ حذره، أن يشارك في الحركة، أن يعدو على امتداد صـــفوف الأفكار، أن يعدو عبر متاهات البيوت، أن يفهم أفعال الناس بفتـــرة طـــويلة قـــبل أن يفهموها بأنفسهم. تعلّم أن يمسك بقوانين العلاقات، أن يفسّر الفروق بأقل ما يمكن من كلمات. تعلّم أن يختفي ويظهر للعيان من جديد، أن يتزحلق بعفويّة من دماغ إلى آخر.

علّـــم نفـــسه فنّ التواجد في مكانين بوقت واحد. ولذلك ميزاته الواضحة. الأوّل يظل جالساً في قاعة الدرس، فيما يسير الآخر متجوّلاً في غابة. الأوّل يظلّ مستلقياً في السرير وينام، فيما يلعب الآخر الكرة فـــوق الأعشاب البنّية خلف المتجر الكبير. الأوّل يجلس في مكان على أطـــراف الغابة ويراقب قطيع أيائل يرعى الأعشاب، فيما الثاني يدسّ أصابعه الصغيرة الفضولية في أعين الحيوانات.

تعلّـــم أن يرى. أن يصير تلك النظرة التي تشعل نفسها في شيئها مـــثل شعاع الشمس عبر عدسة تكبير. تعلّم أن يكون النظرة التي ترى الصالة من جميع جوانبها، وفي النهاية سيصعب عليه أن يستعمل كلمة

"أنا" عن نفسه. ستصير ظلال نسيان تثير الصخب في الحديقة الخلفيّة. سيمكنها الطيران. تصير تيّار الفكر اللامحدّد في سرب الزرازير. تمضي في التلاشـــي وتتبخّـــر، تنساب عالياً في السماء، ثمّ تمضي متوحّدةً مع غيمة.

الفصل 3

في مطار كوبنهاغن تملأ الهبّات المنبثقة من قوّة العاصفة التجاويف الهائلة، لأنّ الضغط يولّد الضغط، فالضغط الجوّي منخفض، تسعمائة وثلاثون ميليباراً، ثمّ هووووه، سسسيووو، ثمّة هبّة ريح تطارد فوق السطوح، وهو يفتح الباب ويخرج للفضاء الطلق.

المشي يجلب الارتياح. جادّة فيكتوريا. تبدو المدينة ناعمة الملمس تحت الأقدام. جادّة ماينونغ. سائرون أحياء. جادّة أوستر. تنفخ في فراغ ذاتها. جادّة أورغوس. تنازع بشارع يخترق قلب المدينة. جادّة كوبماير.

الريح تصطحب معها الأوراق الذابلة، أوراق الصحف، أكياس النايلون، الغبار. ثمّة من خطّ بأصبعه "اغسِلني" على زجاج سيارة متوقفة. الأشجار تتمايل. قناديل الشوارع تتأرجح.

في الأعالي ثمّة من يهمس:

- الآن سيحدث، تعالَ وانظرْ!

يواصل مسيره باتجاه شارع جوزيف وكأنّ شيئاً لم يحدث، ثمّ يتوقّف أمام "وزارة النسيان". ها هنا يتوجّب عليه الدخول. سرعان ما جمّعت الريح نفسها، كانت تنزلق بإحكام فوق سقوف المنازل وتنتزع إحدى أحجار الطاق من مكانها، الآن يسبح الحجر في الهواء، جسم تحت قوانين الفيزياء، مصادفة تتوحّد مع الشرط.

بعـــدها صـــوت حجرٍ وجمجمة يلتقيان، وماء الرصيف الرماديّ يتطافـــر على وجهه. أناس يتجمهرون من أماكن عدّة. بعضهم يعدو داخلاً إحدى الحانات ليستعير هاتفاً. أصوات منفعلة. في البدء لم يكن ثمّـــة شيء، ثمّ بدأ يشعر بإحساس ساخن في رقبته، ثمّ ألم عميق. يسمع صـــرخة مـــن إحدى النوافذ في الطابق الرابع ويرى وجه فتاة في نافذة كانت تُفتح.

بعـــدها وجوه عديدة، لكنها قريبة الآن، ثمّ غابت ثانية. صوت باب سيارة يُطبَق. صفّارة إنذار تأتلق. ضوء. ظلمة. ضوء.

الفصل 4

طـــيشٌ مـــا أتى بهما وسط غابة متلألئة بضوء عابر، حيث كانا والفضول على ميعاد.

- يا جدّي، هل تعرف؟
- كلاّ.
- ولا أنا أعرف أيضاً...

لكن في يد الجدّ توجد خارطة للعالم، بدروب ومسالك ضوء، تـــلال نمـــل وسرخس، أشجار وغصون متشابكة ومساء طويل ذو ظلمة أليفة ضربت أطنابها حول الاثنين من دون أن يلاحظاها. كان يمـــضيان في مماشي الغابة التي تشابه بعضها بعضاً وتتشعّب متجدّدة باستمرار.

كان الوقت متأخراً، وكانا لا يعرفان أين هما الآن، فما من أحد مـــنهما كان لديه حاسّة بالمكان. الخطى تتوقّف وتتواصل في دواخلهما مثل ضربات القلب. صفرَ الجدُّ وحاول أن يتظاهر بأن شيئاً لم يحدث، لكن كلاهما كانا يعرفان أنهما ضيّعا الطريق.

الظلمـــة الأخرى حلّت، تلك التي قدمت من الجهة الثانية للباب، وخـــبّأت نفسها بين جذوع الأشجار، ليمكنها أن تضع يدها عليهما وقتما تريد. جالا في أنحاء غابة حالكة، وفي الظلمة تذكّرُ كلّ المماشي ببعضها البعض. توقفا هادئين. سارا في حلقة دائريّة. ظلاّ سائرين هكذا

فتـــرة طويلة. على أية حال عثرا على طريق البيت في النهاية كقاعدة، والجدّة تظاهرت بأنّ شيئاً لم يحدث ووضعت العشاء البارد أمامهما في المطبخ.

الفصل 5

أَلَمٌ في مؤخّرة الرأس أيقظه. عيناه لم يكن بالإمكان تحريكهما. تظلاّن ثابتتين في مكانهما كلّما حاول أن يديرهما. ذلك الذي تريان كان باباً مغلقاً. صار الآن مفتوحاً، وثمّة ممرضة تدخل منه.

- أين أنا؟

تسحب الممرضة جهاز قياس ضغط الدم خلفها. تضع حزاماً حول ذراعه وتنفخ فيه الهواء، يتوتّر حول عضلة الذراع، تكتب رقماً فوق قطعة ورق ثمّ تطوي الجهاز على بعضه.

الألم يجعل من الرؤية عسيرة عليه. قاعة المستشفى عبارة عن شخوص هندسيّة وأشكال من ضوء وظلال. ثمّة حيوان بلا شَعر يجثم فوق قفصه الصدريّ.

- عندك شرخ في الجمجمة. أنتَ الآن تحت العلاج في المستشفى الحكومي. مكتوب في الجورنال أنّ حجر طاقٍ سقط على رأسك.

الفصل 6

كان المستنقع في الواقع مستنقعين، أحدهما كبير والآخر صغير، تحيطه أشجار سنديان عتيقة. في الماء المعتم تنبطح أشجار ساقطة، كان بإمكانهما أن يريا في ضوح الأيادي المعقوفة، الأذرع والأكتاف وهي تبرز من غَرين قاع لا نهائيّ. "بلّوط المستنقع" قال الجدُّ وكأنّه كان يفضح سرّاً عميقاً. لا يمكـــن للمرء أن يعرف أين بداية القاع اللانهائيّ، لذا لا ينبغي عليه اللعب لـــوحده. ومع ذلك فقد ساراً منحدرين إلى هناك، لأنّ المستنقع كان مليئاً بضفادع وسمادل، أسماك كراكي وشبابيط بنّية مائلة للصفرة.

حيـــنما حاول الاصطياد لم يعضّ الشبوط على الطعم، لكن مع مـــرور الـــوقت استطاع أن ينشب خطّافه في خيشوم أحدهما. التمعَ الخطّـــاف بين الحراشف الفوسفوريّة، كانت عينا الشبّوط تحدّقان به في خـــواء، وثمّـــة رائحـــة لحمٍ فجّ عالقة بالأسماك. نظر إليها وهي تختفي بحـــركات مـــضطربة تحت سطح الماء. حلّ الشتاء وتجمّد المستنقع. ثمّة مـــساحات مـــن البياض بدت ظاهرة للعيان في الجليد الرماديّ، بقع طبشوريّة البياض مع أشكال مقوّسة جميلة، كأنّها كانت مرسومة فوق حـــيوان مفترس. الجليد يتذمّر مطلقاً صدى مخدِّراً طويلاً حينما يتزحلق فـــوقه. يـــضطجع فوق الجليد مفتّشاً عن لمعة ضفادع وسمادل، أسماك الكراكي وشبّابيط بنّية مائلة للصفرة. توقّفا هادئين تحت فقاعاتٍ معبأة بالهواء، أفواه فارغة تنتظر في الأعماق.

أحد المستنقعات كان متجمّد القاع، والشبابيط ميّتة. حلّ الصيف، الصيف أخيراً، مع التفّاح والكرز، طعم العصير في الفم، انفجارات من شمسٍ وماء. انحدر الاثنان ماشين صوب المستنقع ليستحمّا، بعدها جلسا على الضفاف متأمّلين سباق الغطس لفراخ البطّ. شعاع الشمس ينتشر مومضاً بارتعاشٍ في المياه المتكدّرة، وفجأة تغطس البُطيطات إلى الأسفل في حركة واحدة. ولأنّ أسماك الكراكي بقيت وحدها على قيد الحياة في الشتاء فقد أخذوها كلّها معهم إلى البيت. طوال الأسبوع ظلّ الجدّ يسير جيئة وذهاباً بين المستنقعين بسطل بلاستيكيّ برتقالي اللون. كان يسير في جزمته المطاطيّة جيئة وذهاباً مع السطل ويسكب أسماك الكراكي من المستنقع الأوّل فوق الشبابيط في المستنقع الآخر.

الفصل 7

- صباح الخير.

صـوتٌ محتـرِفٌ يـوقظه. ذراعه تحاول أن تُنهضه فوق سرير المستـشفى. مـا زال الحـيوان جائماً فوق صدره، يحدّق فيه بعينيه البيـضاوين. أخـذ الآن بالتدحرج نحو نهايات القدم. تناول الطبيب مظـروفاً بنيّاً كان معلّقاً فوق السرير ورفع صورة الأشعّة السينيّة عالياً بمواجهة الضوء.

- أها! شرخٌ في الجمجمة، كسرٌ مثيرٌ! عندك إحساس بالغثيان؟

- ثمّة عويل وصريف داخل رأسي، أنا أتذكّر...

- ستتحسّن الأمور. من المعتاد أن لا يكون المرء قادراً على تذكّر الدقائـق الخمس الأولى والأخيرة من حدوث الشرخ في الجمجمة. إنّه الحُصَين الذي أصيب بالارتجاج، وهو أحد التلافيف المشكّلة على هيأة حصان البحر في داخل الدماغ، ويتولّى تدبير وظائف كلاً من الذاكرة القصيرة والطويلة الأمد. ستستعيد ذاكرتك بالتأكيد من جديد.

- ليست هذه هي المشكلة. أنا أتذكّر أكثر من اللازم.

ابتسم الطبيب بودّية ودون تعاطف.

الفصل 8

- إذن على المرء أن يقول شكراً.

قدّم له والده حصان بحرٍ يابسٍ. معرض الأسماك الدنماركيّ. كان قد بلغ السادسة وأربعة أشهر حينما وجد نفسه في الظلام مع سمك الأنقليس الكهربائيّ والأسماك الاستوائيّة المبهرجة.

مضيا من واجهة إلى واجهة، ألصق أنفه على زجاج الأحواض المضيئة. على الجانب الآخر من الزجاج كانت تسبح حيّةً بعيون تتقوّس خارج الجسد. سار وحصان البحر في يديه، يحضنه بقوّة لكي لا ينكسر. كنز تحت الحراسة، كائن لا وجود له سوى في أعماق البحر. لحصان البحر ذيل مشكّل على هيئة عروة تشبه الحرف "ع"، حراشف بنّية الحوافّ، صفراء وبرتقاليّة الأطياف وتضوع برائحة الطحالب. طعمه مالح. "يا حصان "حصان البحر"، الذي يتقاسم كلّ معارف العالم، أنتَ مُلكي الآن".

- شكراً!

الفصل 9

- نغمة عويل في رأسي.

تبتسم الممرّضة بسماحة.

- تفضّل. ستتحسّن الأمور. سأغيّر ضمّادتك الآن.

ثمّـــة يـــد تمـــتدّ. هل تعود له؟ إنّها يده، وهي تحمل كأس الماء والأقراص وتمرقهما على الأرض. يغلق عينيه ويحاول ألاّ يفكّر بالدماغ في داخل الجمجمة ومواضع الخلايا الميّتة، ميّتة بعد لقائها بحجر الطاق، مسامات خَرِبَة لأعضاء جسديّة.

كلّ خليّة من مليارات الخلايا الدماغيّة تستشعر نغمة العويل هذه في الـــرأس. إنها النغمة الأساسيّة في النسيج الحيّ التي تصاحب حركة المحرِّك الكونيّ المعقّدة.

عناقيد الخيوط العصبيّة المنتظمة في حزمٍ وأسلاكٍ تزحف متداخلة مع بعضها، تنساب باتجاه خلايا الدماغ، تنسلّ خارجةً منها ثانية، تجد الطريق إلى مماشي المعرفة المنصهرة، تتابع الخيوط المضفورة والمنحلّة التي تتمـــزّق وتتحوّل وتنفصل ثمّ تجمع نفسها في فكرة ما في مكان ما في النسيج. كلّ خليّة من مليارات الخلايا الدماغيّة هذه. سلاسل وسلاسل متّـــصلة تتضاعف، تجزّيء نفسها، تتشكّل، تموت. أعداد لا تحصى من الذرّات وتراكيب جزيئيّة تحمل الوعي المنتشر، المهتزّ.

الفصل 10

ذات يوم عثر على كلبٍ في الغابة. كان يعوي ليلاً ونهاراً. في البداية كــان يــبدو نشطاً وسعيداً برؤيته. كان يقف مربوطاً إلى أحد الأشجار. أحــدٌ ما قد فعل ذلك لكي لا يتبع أثره. بعد بضعة أيام رآه مضطجعاً لا حياة فيه في عمق الغابة وكأنما كان نائماً، لكنّه حين اقترب منه لاحظ أنه لم يكن كذلك. كان يرقد على جنبه ويحدّق بجمود ببعض الذباب.

في البداية كانت الرائحة لا تُحتَمل، لكن مع مرور الوقت تلاشت وانجــرفت مع الرائحة المنبعثة من أطراف النباتات المتفسّخة. ثمّة شقائق نعمــان نامــية، أشجار متفتّحة، وأشجار السرخس تلقي بظلالها فوق خطمــه. كان يبدو وكأنّ لا أحد غيره قد لاحظ أنّه يرقد هناك. لقد أصــبح كلبه. مع مضيّ الزمن أخذت أحشاء الكلب تبرز إلى السطح. كانت تتدافع فيما بينها لتخرج من خلال اللحاء الأسود المتعفّن الذي تــشكّل في الأعلى. كانت العينان نازفتين وغائرتين، الأسنان والحنك اختفيا في حشد من الخيوط الكثّة والطحالب اللزجة.

كانت أحشاء الكلب بيضاء ذات ثقوب ورغوة تدثّرت مع مرور الــوقت بقــشرة متعفّنة ومادة قماشيّة مهلهلة. لقد واصل كونه كلبه الخاصّ، وكان يحبّه كما هو، لكن مع مرور الزمن تضاءل الكلب أصغر فأصــغر ولم يعــد يشبه نفسه. بطيئاً غطّته التربة والأوراق. وفي الختام كان كلبه قد اختفى.

الفصل 11

- استيقظْ، لا يمكنك النوم طوال الوقت.

- أنا متعَب.

كان الصوت يبتعد، خارجاً في خطى الممرّ العجولة التي تقترب ثمّ تتلاشـــى. كان يرقد في داخل نفسه وينظر إلى الخارج من خلال الألم مـــصغياً إلى نغمة العويل وهي تتصاعد ثمّ تهبط بيسر، تستجمع نفسها علـــى هـــيأة بحر وتعود لتنتشر من جديد في تدفقات متفرّقة، تمتزج ثمّ تتحلّل. وجوهٌ من جديد. أصوات. كلمات تحوّم في مياه آسنة بلا قاع. البناء الكبير يتمايل. بين الفينة والأخرى كانت أصوات المدينة تتسرّب إلى الداخل، تصل إليه عبر ضبابٍ لذيذ يقبع في شرخ الجمجمة. الأيام تمضي. محادثات متشابهة مع ممرضاتٍ متشابهات.

الفصل 12

في المطبخ كانت جدّته تشطف قناني المخلّلات، تمزج السكّر مع الصوديوم، على الفرن كانت الطناجر المليئة بالتوت والفراولة المطبوخين. كأس بعسل طازجٍ. وعاء مليء بالبيض عند حافة الشبّاك. الذباب يئزّ.

- ما الذي حدث للكلب؟

- لقد مات.

كان يحاول الإجابة بعفوية قدر الإمكان.

- أين يقع المكان الذي دفن فيه؟

- لقد دفن نفسه بنفسه.

الفصل 13

الأشـــياء تحيط به، حواف حادّة، أشكال، تتدافع فيما بينها من حوله. يمسّد سطوحها بأطراف أنامله، يستشعر حرارتها الحصيفة. يتاح لــه الــتجوال بينها، يجد مأوى، إنّها مؤشرات بوصلة يمكنه الاعتماد عليها. بلوغ اليابسة.

أحدهم وضع ورداً على الطاولة. رائحتها تشكّل ميداناً هشّاً. الــورود تتيح له أن يتمعّنها. كانت الأشياء متحلّقة حوله. الأشياء، بكــلّ ثقلها. سطوحها تنتشر حوله وتختبئ في دواخله. إنّه لفائف وغضون، نسيج سطحيّ ومحسوس، جلد ينقلب على باطنه، وجلد يــنقلب إلى داخلــه. الأجسام تتشبّث ببعضها مثل دولاب مسنّن يــضغط الناعم على الصلب. إنه يتعرّق. جلد شيئه يتعرّق. يتعرّق ذاتــه. الملابس تلتصق على الجسد، لزجة من شدّة العَرَق، شرشف السرير، جلد السرير.

مـــا زالت حوله توجد طبقة جلد، الهواء مكتظّ بذرات الغبار.، يستـــشعره مثل نقاط، جزيئات، غبار ذرّات، الذرّات تحلّق حوله وفي لحمـــه، وتلـــتفّ ملاحـــف جديدة تحيط بجلد الغرفة، جلود الجدران، أحجار الحيطان، الأسمنت يتعرّق أيضاً ويتلوّى في قشعريرة برد قارس. ومن حولها يوجد جلد الهواء، ينقذف ويتلوّى، يرتسم، يُشكّل، يُداعب بآلاف الأيادي. وحوله يوجد جلد المدينة، جلد الأسفلت، جلد سكك

الحديد، الأسلاك والمواسير. على الأرض ينتشر جلد شبكة الاتصالات وفي الجــوّ يكــون الجلــد مــن أنظمة عازلة. جلود للغروب، جلود للمجرّات.

الفصل 14

ما هو لون الثلج؟ الثلج يتقافز في الهواء، يفرقع مثل حبوب الذَّرَة ويهوي في حفنات كبيرة. يستشعر النُّدَفَ وهي تهبط من نقاط عشوائيّة في الـــسماء، إلى أن تختفي خارج لوح النافذة. إنها متلهّفة، في مثل هذا المزاج الهوائيّ ستأخذه معها وتستخدمه في مسعاها لتدثير العالم.

أخـــيراً جاء الثلج، ولون الثلج لم يكن أبيض. جعل من الأحياء تتـــشابه والبـــيوت تأخـــذ ذات الأشكال والأحجام. خرج الناس إلى الـــشوارع وشرعوا بالمجارف والمكاشط يشقّون الطرق ويهرسون الثلج ويرشـــون فـــوقه الملح، وكلّ ذرّة ملح أحرقت ثقباً في طبقة الجليد. لم يكـــن بإمكـــان أحـــد أن يتذكّر أنه قد رأى ثلجاً بمثل هذه الكثافة. المستنقع تجمّد. أحذية التزلج كانت صغيرة وضيّقة لكنّ الخروج بها كان مبهجاً.

عـــند المساء أوقدت شموع اصطناعيّة فوق الأشجار، وكلّ شيء حوله أضحى لا وجود له. كان الثلج خشخشة في القلب. كان تقريباً ذلـــك المخيال اللامرئية على الجانب الآخر من المستنقع. كان قُبلة غير مـــتوقعة، السعادة المحمومة الزاحفة التي تدبّ منتشرة إلى داخل الجلد، شـــعور دوّار في كـــلّ خطوة، في كلّ نبضة قلب. كان لمحةً انـــزلقت بعـــيداً، شـــعور بالحبّ انـــزلق بعيداً، لعنة، لعنة الثلج، تشاكلٌ زلق، صارخ، لعنة صارخة. لون الثلج كان أسود، والجميع يعرف ذلك.

الفصل 15

الهدوء يغمر ردهة المستشفى، من بعيد يصل إلى مسامعه سعال متواصل من أحد المرضى. موجات الذاكرة تصطخب في داخله، شظايا كلمات، صدى ممسوخ. الذكريات تضطرب في داخله وتتلاطم في قِدر منبعج. ردهة المستشفى تدور. يحاول أن يتذكّر بوضوح. يحاول أن ينسى. الحرارة شديدة. الحمّى تكوي الجرح. لا تفكّر. لِمَ كلّ هذا الحّر بحقِّ الشيطان؟ أدغال. ثمّة حرب. طائرات مقاتلة تحلّق على ارتفاع منخفض تقذف بقنابل النابالم. يمكنه الإحساس بالضغط الجوّي، يبصر اللهب. جنود المظلات. إنّه هو الذي يُطارد. إطلاقة. مناجل. صرخات وكلاب تنبح على مقربة منه.

ضاحية في وسط الأدغال؟ يعدو، يعدو. تناسق مثاليّ لصناديق البريد الجديدة هذه مع طراز المنازل الدنماركية ذات الطابوق الأحمر والأصفر، دربٌ للسيارات وجراج مسقوف وسياج منخفض من شجيرات قُصّت حديثاً. لا بشر هناك. اليوم في منتصفه. لا وقت لتضييعه. سوف يقتلونه بلا ريب. الأدغال تزداد كثافة. نباتات متسلّقة ريّانة تنبثق من الأرض في نموّ متسارع منيع. ماذا تفعل بحق الشيطان حظيرة طائرات في وسط الأدغال؟ ليس ثمّة مَدْرَج للهبوط، لا شيء، فقط ثقب في الجدار. أسرِعْ إلى داخله!

فـــضاء فـــسيح، رائحة فضلات أمونيّة حامضة تفوح، تتحلّل في الحـــرارة، وصوت ناعم يدور. إنّه صوت أجنحة خفافيش وهي تخبط الهـــواء، صـــرخات أعلى مستوى من الصوت، حشدٌ أسوَدُ يدور في الهـــواء. يـــدور ويـــدور، محرّكٌ من لحمٍ، فوضى مجنّحة، عجلة العالم، دولاب إكـــسيونيّ[1] مطقطِـــق، خفافيش ذات أجنحة مكسوّة بجلد حريريّ، منجل أسود يدور في شبه العتمة.

ملايين من الخفافيش تنتظر الغسق، تهيّئ نفسها لحصيلة مشتركة، جلـــودٌ طائـــرةٌ فوق هياكل خفيفة الوزن، غضاريف ودماء ساخنة. خلايا الدماغ تعمل في سلسلة مطّردة، استشعار راداريّ. عظام الأذن تنغلق على نفسها حينما يصرخ الحيوان، ثمّ تنفتح من جديد، ثمّة متسع مـــن الوقت لقنص ارتداد الصوت. في مركز هذه الطاحونة الحيّة تقبع طائـــرة أمـــريكية مقاتلة، صدئة غاطسة. ثمّة نبات لبلاب وبامبو ينمو مخترقاً المقصورة.

كانـــت مراوح الطائرة متآكلة من الصدأ، الخفافيش تخفق أسرع فأســـرع، حـــشود فـــوّارة تهجـــم بلحظة واحدة على ظهره، تصفق بأجنحتها، والصرخات تتصاعد، وهو يغطس تحت ثقل الخفافيش ذات الأسنان المدبّبة، إنّها تمصّ وتصرخ، وكان هو نفسه الذي كان يصرخ.

- استدعِ الطبيب الخفر، أُجلُبْ بعضاً من الدواء المسكّن للحمّى.

الأيام لا وجوه لها، نسيجٌ من أصوات تُحاك مع بعضها ثمّ تُنكثُ مـــن جديـــد. ثمّـــة الـــتهاب في الجرح، في القشرة التي بين الجمجمة والدماغ. الوضع خطير. الالتهاب يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. لا يريد أن يتلاشى، معطّلاً عمل الأعضاء الحيويّة.

---

(1) دولاب إكسيون: عجلة ناريّة مجنّحة دائمة الدوران رُبط عليها إكسيون، ملك لابيثس في المثيولوجيا الإغريقية، بأمر من زيوس عقاباً له على إثمه.

فـــوق إحـــدى اللافتات مكتوب "معالج لغويّ"، على الأخرى "مركـــز إعـــادة التأهيل". أناس ودودون بأردية بيض يبذلون مجهوداً للـــتحدّث بوضوح. هو يبتسم. يردّون على ابتسامته بابتسامة. يسقط على الأرض. يمسكون به وينهضونه. يحاولون تعليمه الزحف. يتقيّأ في حسائه. يقدمون له وجبة خفيفة جديدة.

يـــرقد علـــى سريره في الردهة وينظر عبر النافذة. في فكره يرفع المستشفى عالياً وينـــزله إلى الأسفل بانحراف أربع مللمترات على جهة اليـــسار. هكذا! عتبة النافذة والمبنى الذي بمواجهته ينـــزاحان. الأشياء تتبع الزوايا الصحيحة، وهو يستغرق في النوم.

الفصل 16

لسبب أو لآخر ليس ثمّة ستائر، فقط عين القمر الرصاصيّة، مع فوّهات البراكين وشريط الأنهار القمريّة. إنه يلتحم بثبات على شبكيّته، منطقة اللاضوء تواصل توهّجها خلف البؤبؤ. الجهة الخلفيّة من القمر مستوطنة بحشرات، مناشير ومثاقب. الأشباح تقدم لكي تشرب من عينيه.

لا جدوى من النوم والضوء مشتعل، فالرعب قد أفلت من عقاله داخل الجسد، وتحوّل إلى صوتٍ يواصل حديثه بلا انقطاع. الصوت لا يشكّل كلمة واحدة، كانً مجرّد همهمة، تذمّر، صريف. في داخل الأعضاء تعمل نوابض، عجلة مسنّنة، وسلاسل مزيّتة كانت مرتبطة بطريقة بارعة ومبهمة مع محيطها الخارجيّ.

الأشياء أنقذته. تحالف مع صمتها، هدوئها، حرّيتها بالتواجد في أماكنها. لأنّ لكلّ شيء حياة ثابتة، مكتفية بذاها. الأشياء تعرف أنّ حياته معلّقة بها، وبهدوء أدارت جوانبها المنظورة باتجاهه.

ماذا يجري في داخل الظلام؟ فراشات الليل ترفرف بصوت ورقيّ باتجاه النافذة. الموسوعات تقعقع بمعارف عتيقة. تحوي لكمات وتماثيل من البرونز، أغطية أسرّة مخشخشة. حشرة أبي مقصّ تدبّ على امتداد اللوحة. ثمّة وتر أطلق من البيانو صوتاً صافياً عالياً، والظلال في الردهة تتقافز صعوداً وهبوطاً على الجدران مثل

قرود مفزوعة. الثلج يضيء الحديقة في الخارج. لكن كلّ شيء خطّ دائرة لا تُقتحم من حوله، ثمّ حلّ الصباح، وعلى الأشباح أن تغادر الغرفة بقضية فاشلة.

الفصل 17

لا يعرف من أين تأتي، لكنّ صور الذكريات تنجرف إلى ساحل روحـــه، حيث لا يكلّفه الأمر سوى الانحناء والتقاطها من هناك. كان يحلـــم مـــستيقظاً طوال الليل. إنه نائم. لم يبلغ من العمر سوى ثلاثة شهور. إنّه يستيقظ. يبصر وجه أمّه. وجه حنون. حلّ الظلام. ثمّة وجه آخـــر الآن. بعـــد لحظـــة تبيّن وجه أبيه. لهذا السبب حلّت الظلمة. الأصيص أملس. أحد ما يبكي. إنه صوته الشخصيّ. الغرفة رائعة.

ثمّـــة منـــزل كبير. يتجوّل المرء بحريّة في طوابقه المتعددة. الطوابق مرتبطة بسلالم. ليس هنالك ضوء كثير. يفتح هو باب أحد الغرف. ثمّة شيء أسود على الأرضيّة. إنه يتحرّك. يواصل حركته مسرعاً.

يحـــاول أن يستجمع نفسه. لكن لم يكن بالإمكان تجميع صورة. في كـــلّ مـــرة ينتهي في زاوية، حيث يتغيّر الحافز فيه وينتهي في آخر. الـــشمس تمـــلأ الصالة، وفي عينيه تشرق آلاف الصور الجليّة في ذات الـــوقت. يمضي في مشوار نـــزهة داخل ذاكرته. إنها كواليس ضروريّة مغلقـــة، وذات ضـــوء الـــشمس يـــنفذ عبر جميع الحيطان من خلال الصدوع، وهو يستطيع الذهاب أينما يريد، إنّه حرّ.

يـــستيقظ. أم أنـــه استغرق في النوم؟ حشد مسامات تتدافع في داخله. بعدها أصبح صافي الذهن، يحلّق في مظلّة هبوط. لم يكن يعرف أيـــن هو وليس بإمكانه الخروج من هذا الوضع الذي لا يقاوَم. وعيه

سجادّة من قطرات بلّوريّة زرقاء تتبخّر في اللحظة التي ينقل فيها نظرته باتجاهها. روحه معلّقة على الجدار. إلى جانبها ثمّة لوحة مكتوب عليها: طلاء جديد.

علـــى ســـطح الجدار شعرة ملتصقة من الفرشاة. حاول إزالتها بالأظافر. من صدع الجمجمة ينبثق ضوء إلى الداخل، ينقّب في دماغه، لكـــن دون أن يجد شيئاً. إنّه يفتّش عن اسمه العائليّ. الأشياء تأتي إليه لكي تعرف ما هو اسمه. هذا ما لا يمكن البوح به. ليس بوسعه إطلاق أيّ صـــوت، مـــاذا سيكون عليه أن يقول؟ أنّه حشرة تسعى صعوداً وتجلـــس الآن علـــى قمة ورقة عشب وتبارز في الهواء بلوامس عديمة النفع؟

بعـــدها يـــستدير العالم عائداً. يعدو إلى لقائه. صاخباً، مترنّحاً، خالطـــاً الحابـــل بالنابل، هازّاً بذيله للقائه. الدم يتوقّف عن الجريان في الـــذراع النائمة. يستيقظ في داخل نفسه. النوم يجثم قليلاً على قفصه الـــصدري. الكلمـــات مصابيح يدويّة يضيء بها الأشياء. يتلفّظ بأسماء الأشـــياء. يبصر: "كرسي"، "طاولة"، "آنية زهور"، "شبّاك"، "قميص مستـــشفى". ينشقّ الجدار عن قهقهة جليّة صاخبة. بالطبع هو كذلك يمتلك اسماً. اسمه إيكاروس، ليس الأمر صعباً على الإطلاق.

الفصل 18

إيكـــاروس؟ جدّه وجدّته يدعيان "ريجمور" و"فريذه"، وقد التقيا بعــضهما خـــلال كونسرت لسترافينسكي خلال حرب وشتاء، الولع بالموســيقى ربطهما ببعض. كان الجد يعاني من صرع الموسيقى، وهو يتحدّث عن ذلك بفخر. تحت نوبات الصرع تخترق موجات الموسيقى دماغه، وبعدها يجول وهو يصفر، النغمة لا تكرّر نفسها على الإطلاق، ثمّ ينساها حالاً بذات السرعة التي أصابته فيها النوبة.

في غمرة المحادثات كان يمكن لعينيه أن تتصلبا، ويكون بإمكانه أن يبصر عبر الشخص الذي يقابله، حيث يقوم بتفحّص شيء يكون عابراً في دماغـــه وفي الكون الأعلى في الوقت نفسه. عيناه تركضان مليئتان بالرعب البارد. الخلايا العصبيّة تشكّل موجات متزامنة، ومحجرا العينين الأبيـــضين ينقلبان. وقع إلى أمام واضطجع على الأرضيّة، فيما كانت سلسلة من التشنّجات تجتاح جسده. بدأ وكأنّه كان موثوقاً بخيوط لا مـــرئيّة إلى كلالـــيب ناشبة في أعضائه وتسحبه الآن من فوق، لغرض التسلية، إلى الأعلى.

أثـــناء الكونسرت أصيب بالنوبة وشرع بالصفير متجوّلاً دون أن يقلق نفسه بشأن الصخب الذي أثاره. أخذته الجدّة بين ذراعيها وقادته خارجاً في عتمة الشتاء. اشترى منـــزلاً، فملأته هي بالموسيقى، رائحة الطعام والأطفال الذين كبروا واستوطنوا مناطق نائية من البلاد.

عـــند المساء تترك الجدّة يديها العنكبوتيّتين تنـــزلقان فوق مفاتيح البيانو فتطلق نغمات، إيقاعات وأصوات. بيتهوفن، موزارت، باخ. أو تنهمـــر الموسيقى منبثقة من الغرامافون المركون في زاوية الصالة. كان إيكـــاروس يجلس على الأرضية، فيما كانت الموسيقى تخطفه من مكانه مثل زوبعة. ترفعه بيد موسيقيّة مشعرة عالياً في الهواء. تلك الذي كانت أصـــواتاً بعـــيدة غير متناسقة تستجمع الآن نفسه كثيفة بطواعية حول بعضها وتتحول إلى نهر جليد ينتصب مثل سارية فوقه. الأصوات تصير مشهداً رنّاناً، ينـــزلق مباشرة في دواخله بالألوان، الروائح، اللمسات. الموســـيقى تقـــبل من كلّ الجهات، وكلّ شيء كان سطوح مقلوبة. الصالة تصير نسيجاً من أصوات، فيما كان هو يصغي للموسيقى لأول مـــرة في حـــياته. كان نوعاً جديداً من انعدام الوزن. لكنه من خلال الموســـيقى سمع قهقهة، ففهم أن بإمكان هذه الضحكة أن تمحوه. أنّ عليه أن يواصل الإصغاء.

الموسيقى تشكّل نهراً يغمر العالم. الأنغام المتعدّدة تحوّلت إلى مرآة غـــير منظورة، وهو يتلاشى في زمن يمكن أن يمتدّ عشرين عاماً، صيفٍ كامـــلٍ، ثلاث دقائق، أو لحظة تنفّسٍ، ثمّ تتركه الموسيقى في النقصان، حيث تبدأ كلّ الإصغاءات من جديد.

الفصل 19

نغمـــة العـــويل تتصاعد وتتصاعد، إنها حبل يوازن عليه نفسه في أغواره. تحته تقع هوّة الأشياء. يضع قدميه بحذر ويحاول أن لا ينظر إلى الأسفل.

– هه، كيف حالنا هذا الصباح؟

ينتظر الطبيب الإجابة.

– نغمة العويل ما تزال.

– طنينٌ عابر. ستمضي الأمور على ما يرام...

تمـــضي الأمور، آفات الأذى في تغضّنات الخلايا العصبيّة والحوار ماضـــية في عملها. لكنّ ألياف الأذن الداخليّة ما زالت ترسل إشارات لمركـــز السمع في اللوامس الأمامية. إحساس لا ينتمي لهذا العالم، نغمة رنـــين حادّة، تتذبذب حول ذات البؤرة، إنّه غرام سينوس وكوسينوس التعـــيس، العاشـــقان اللذان حكم عليهما بالانعكاس في صورة الآخر وتبادل الأمكنة إلى الأبد.

2

الفصل 1

يتكوّن الحيّ من بيوت مميّزة ذات ألوان مميّزة. كان أبوه قد صمّم المنزل شخصيّاً. البيت من الخارج يشبه البيت العادي تماماً، لكنه في الداخل يحوي تقريباً أعداداً لا حصر لها من الغرف. استنسخ الأب التصميم الأساسيّ عن منزل في جزيرة كريت واستغرق بناؤه سنة. كان يعمل ربّان طائرة ويحلّق بالطائرات اللامعة نحو المدن البعيدة ذات الأسماء المميّزة: لندن، جاكارتا، ليما، ألبورغ، ولا يعود إلى البيت سوى للإشراف على البناء، لكن كان عليه شخصيّاً مع مرور الوقت أن يتخلّى عن القيادة فيه.

أثناء الشجارات كان يصرخ أن الإنسان لا يمكنه أن يأكل حجر الجدار. ورغم ذلك فقد كان هنالك شيء ما قد قضم ثغرة داخل الحائط، ثمّ تبع ذلك صوت زجاج يتهشّم، وأضيء المصباح، ثمّ أصبح ذلك الشيء الشرس الرابط الجأش، الموجود في كلّ عتمة، مرئيّاً.

إيكاروس مرتبك بالبيت، كان إحدى محطات احتفائه. مع مرور الوقت طوّر سمعاً غير عاديّ وتتبع كلّ خطوة فوق السجادّة الناعمة الكاتمة. كان يصغي حينما يسحبون قطعة أثاث فوق الأرضيّة، يسمع صنبور الماء ينقط في المطبخ، وردة تخشخش وهي تفقد أوراقها فوق طاولة في غرفة الانتظار، غصن يرتطم بلوح النافذة، صرير السرير، تنفّس التنانين.

المنـــزل يتّسع. ربما كان ذلك شعاع قمر الصيف الناصع الذي جعـــل مـــن يكبر. خطى تقترب، خطى في الممر الضيّق، مرّتين على أرضـــية المرمـــر ومـــرّة فوق السجادّة الناعمة، صوت كعوب عالية، جزمات عسكريّة، قباقيب، خطى في اللحم، خطى في الخطى.

ذات مرّة كان ثمّة باب، وخلف الباب كان ثمّة ممرّ. في هذا الممرّ سُـــمعتْ هنالك خُطى. كان قلبه الذي جعل من الدم يخفق على طبلة الأذن. أم كـــان ذلـــك فيما بعد، كما فهم، وأنّه كان هو الذي يقف خلف الباب؟

أصوات الأبوين بدت نائية، مقرقعة في التلفون، في جهاز اتصال مكسور، في مسجّل شغّال لسيارة عابرة، صدى صرخة تطلب النجدة في تـــردّدات الطـــوارىء. كـــان المنـــزل مذياعاً من طابوق، حيث الأصـــوات تجـــدل نفسها عبر الأسلاك وتدور بين الترانـــزستورات والمكوّنات الخزفيّة.

حجـــم الغرف متغيّر. بعضها كان غاية في الصغر، وأسوأها كان لا يأوي سوى إنسان واحد. كانت ثمّة خلايا فجّة مثيرة للغثيان تفوح بـــرائحة فضلات الإنسان. غرف أخرى فيها سجاجيد ثمينة، لوحات ومرايا. الصالات ملأى بالأثاث الجميل المنقوش المغطّى بطبقات الغبار. غرف أخرى لها جدران منحنية مائلة بشكل غريب يجعل من المستحيل الانتـــصاب فيها. غرف أخرى كانت بلا أبواب أو شبابيك. ثمّة غرف كان ترتيبها لا ينمّ عن معنى.

مـــع مـــرور الـــزمن ســـكن الأبوان في المنـــزل مثل حلزونيين عجـــوزين. كانـــا يتحركان عند الضرورة ويُجلب لهما الطعام. غرفتا نومهما تقع كلا منهما عند طرفي المنـــزل، لكن كلّ ليلة كانا يتناغمان مـــع بعـــضهما. أغلقـــا أجزاءً كبيرة من المنـــزل، ختما على صالات

وطوابق لكي تتقلّص الأماكن المأهولة. في النهاية زحفا مع بعضهما إلى المطـــبخ. هـــنالك جلسا جامدين كلّ على كرسيه ويحدقان في التلفاز بعينين متلألئتين، طفلان مجنونان يلعبان وحدهما في داخل البيت.

الفصل 2

يوم الأحد قدم زائرون، واحد، اثنان، ثلاثة أجساد عنيفة جلست قرب بعضها في صالة الانتظار مع القهوة والسكّر في صحون الخزف.

- كلاّ، إنه فوق في شجرته.

مـــن هناك يمكنه الرؤية أبعد ما يستطيع. يرى عبر حجر الجدار والهياكل العظمية. يظل رابضاً فوق شجرته غير راغبٍ بالنـــزول، لن يفعلـــها أبداً. لأنّها لا ينبغي أن تكون هكذا. ينبغي أنً تكون بطريقة أخرى. مثل الحلزون الرومانيّ والعشب الأخضر النديّ.

- هنالك أكثر، حيث المكان الذي تأتي منه.

مـــن الأفضل أن تظلّ على الشجرة، تتحرّك عبر إبر باردة الدم، رائحـــة شـــجرة التنّوب، صمغ الرّاتينج في اليدين وثمّة حشرات ولحاء أشجار ملتصقة بالصمغ بقوّة. والعالم مكوّن من أسلاك شائكة متداخلة في بعضها، أسنان لولب ودواليب تمسك أجزاء الآلة في موضعها، عجلة مـــسنّنة متـــشابكة مـــع أسنان عجلة أخرى، سراديب ميكروسكوبيّة وأنابـــيب، حيوانات لا مرئيّة تقطع فضاء الغرفة، ممرّات شبحيّة يتابعها دخـــولاً وخـــروجاً. في الليل يتحوّل السقف إلى سطح فضّي يعكس صورة القمر فيكون هو مجرماً هارباً.

- ماذا فعلنا لكي نشعر بمثل هذا الارتياح؟

الفصل 3

الخطـــى تقتـــرب، وتواصل الاقتراب، تقترب من الباب في نهاية الممـــرّ، إنهـــم يواصلون القرع على الباب، يلقون بأنفسهم عليه. شبح يبزغ ويحني نفسه فوقه.

- كيف حالنا هذا اليوم؟

الطبيب يتأرجح جيئة وذهاباً في قبقابه المقرقع. يقرأ في الجورنال. يـــتفحّص صـــورة الأشعة السينيّة بشرود، يحدّق في الجرح في مؤخرة الرأس. ثمّ يطنّ جهاز الاستدعاء الذي يحمله.

- نراك غداً.

إيكـــاروس يمسك بصورة الأشعة السينيّة باتجاه الضوء. الصورة الـــسالبة الرمادية تكشف عن شقّ في القحف فوق الأذن اليمنى تماماً. اللحـــم في الصورة مخترق بالضوء، يتلاشى أمام فوهة الأشعة السينية. الجمجمة فقط مرئية. هناك يحلّق الدماغ بلا وزن. أَمِنْ هذا المكان تأتي الأشـــياء؟ العارف سيمكنه التمييز بين مراكز الدماغ المختلفة المتقاربة: مناطق السيطرة على العضلات، حاسة التذوق وإحساس الجلد، السمع، الشمّ، النظر.

مـــا يكـــون الإنسان؟ نسيجٌ حيّ فوق هيكل من الكالسيوم. في الـــصورة الـــسينية يمكنه أن يرى سلسلة من الظلال المدهشة المستوية، خـــرابيش تقاطع بعضها بعضاً في شبكة منظّمة، خطوط دقيقة تتشعّب

مــشكّلة خارطة. لعلّ ذلك كان بسبب المادة التي طبعت فوقها صورة الأشــعة الــسينية؟ كــلا، إنها فعلاً خريطة مدينة مع أسماء الشوارع، الــساحات، البحيرات، شبكة الطرق منسوخة وفق قياس صحيح. ألا يــتوجّب على المرء أن ينادي الطبيب؟ لكن الأمر لا يدعو للشك. إنها خارطة مدينة، وهذه المدينة هي كوبنهاغن.

الفصل 4

الـــوالدان؟ لقـــد اختفـــيا من تلقاء نفسيهما في السنة التي أتمّ فيها العاشرة. ها هو الصيف والسماء تغطي الأرض بالأزرق. لقد وقع حادث علـــى تقاطـــع ي 1. سيارة "غولف" ذات اللون الفضّي الرماديّ لم يعد بالإمكان التعرّف عليها من جديد. البنـــزين يسيح على الشارع. سطحه يعكس ألوانَ قوس القزح. سيارات أكثر وأكثر توقفت. شخص يتحدث بانفعـــال في أحد الهواتف، آخرون يركضون حاملين آلات إطفاء الحريق وصـــناديق الإسعافات الأولية. لكن لم يعد هناك الكثير لفعله، كلّ شيء يسير بحركات بطيئة. المنحشران داخل الكابينة يحدّقان في المتفرّجين بعيون خاوية، وكأنهم يريدان أن يقولا "بعد قليل يحين وقتكم". الحرارة تدبّ بين الحشد الصغير من الناس مثل موجة. حرارة شمس متقطعة ونائية.

نحـــلات تحلّق بين الخشخاش النابت على جانب الطريق، ونغمة حـــادّة تقـــع تقريباً خارج نطاق السمع، مشهد مسرحيّ مصاحب. خـــراب عـــام، هيكل مشظّى. ألف زهرة متمرئية بالريح. إنها صورة فوتوغرافيّة ملتقطة بالعين المجرّدة. الأذرع والسيقان من المستحيل ضبط وضـــعيتها. خطـــى راكضة. حقل دام. ضجيج واهن. دعامة الجسر الكونكريتية لم يحدث لها شيء تقريباً.

مـــا من حياة ستنعكس من الآن فصاعداً خلف العيون الفاغرة. علـــى العـــشب تتبعثـــر بعض المتعلقات الشخصية القليلة. متعلّقات

شخـــصيّة؟ صـــندوق القفافيز يحجب خارطة الدنمارك. دليل استعمال مطبوع. علبة نظارات. كلّ شيء هادئ، كذلك في الداخل، إنها عربدة مـــن لحـــم ومعدن. نـــزيف داخلي يبين من مسافة بعيدة. قمة رأسه الـــصلعاء، شـــفتيها الحمـــراوين، مصبّات أنهار دماء سوداء تسيل من المقاعد.

الأمـــر في غاية السهولة كذلك. مئات ومئات المرّات جالت في ذهـــن والد إيكاروس الفكرة ذاتها. في كلّ مرّة يقود فيها سيارته تحت جـــسر الطريق السريع وهو في طريقه إلى المطار. نداء بسيط وخال من الألم من الدماغ إلى اليد، تقلّص عضليّ، تساوق أعصاب، إنها النتيجة لأقـــلّ استدارة للعجلة باتجاه الكونكريت الرحيم القلب. فعل إراديّ. حركة في توليف صارم مع قوانين فيزيائية متبوعة بحركة الجسم الخاطفة كالبرق. ثمّ إلى المجهول. الوجوه لم تصب بأذى. مازالت تكتسي بتلك الملامـــح النائـــية والمرتخية، ومن بعيد تصل أصوات صفّارات الإنذار المنتظـــرة. ومضات سريعة حادة من عربات السحب، رجال الإسعاف يفتقدون سرعة العمل. المنشار الدوّار يشقّ طريقه بحرفيّة عبر الأبواب. إيكـــاروس يلعب الكرة فوق العشب. إنه حيّ. أليس هذا ما يحاول أن يخبره به الشرطيّان اللطيفان؟

كـــان أمراً لا يمكن التحكم به، لا يسكّنه الكحول ولا الفاليوم. ثمّة سلسلة طويلة من الأفلام تدور حول الكوارث، حول الطائرات التي تـــتحطّم محتـــرقة فـــوق الأرض وعلى متنها أناس عاديون، ناطحات ســـحاب مـــرتفعة كيلومترات، قطارات مقلوبة، بواخر غارقة، مدن مأهـــولة بـــالملايين تحترق، زلازل، ثورات براكين، قنابل تتلوها قنابل تتفجّـــر فـــوق أحياء ضواحي متماثلة، قوافل شاحنات تطحن جدران رياض الأطفال.

ربما كانت محاولة لإحداث كارثة قبل أن يفطن أحد للأمر، استيعابها كحالة دائمية. طريقة للمحافظة على مجرى الأمور قبل أن تفلت من زمامها. الخوف يتمّ إركانه جانباً أثناء السياقة. ألا نشعر بنفس حالة المحّ داخل البيضة؟ سعادة معلّبة تحمل صورها المعيّنة في الثلج الذي ينهمر أمام عدسة الكاميرا الخاوية.

الفصل 5

- هه، ها أنت!

إنّــــه فقاعة تواصل انفجاراها في نُهَيرٍ من الصور الحقيقية. لم يعد يدرك أين هو الآن، أو أيّ وقت من اليوم كان. إنه ينتظر. ما هو اتجاه الزمن؟ هل هو تلك الموجة العارمة التي تتجه نحوه، أم أنه عاصفة تهبّ مـــن الماضي على حاضره؟ الزمن يمضي. خطى الزمن تواصل مسيرها عبره، إنها تعدو، تقف، تستجمع نفسها وتقبع حول كلّ شيء في العالم مثل هُريرة مُدَلّلة.

دائمـــاً. كلّ زمن. من السهل القول أنه فقط يعرف جيداً نقصَ وزنِ المفــــردة: دائمـــاً. الكلمة ريشةٌ صغيرة. ريشةُ الكلمة تحلّق أمام شفتيه. إنه ينفخها، فتواصل تحليقها في فضاء لا نهائيّ.

إنها كلمة كان ذات مرة يعرف معناها. ها هم يقفون في الحديقة، والجد يشير بأصبعه نحو النجوم ويخبره أن الفضاء لا نهائيّ، حتى أنه يمتدّ إلى الأبـــد، بغضّ النظر عن أيّ اتجاه يتحرك المرء فيه. من الطريقة التي أخـــبره فـــيها، يمكن للمرء أن يستشعر بأنّه شخصياً لم يكن يفهم ذلـــك. لكن في تلك اللحظة فهم إيكاروس معنى الكلمة. شعر في الـــبدء بالـــسعادة، ثمّ بالخواء، بعدها شعر بنفسه ميتاً. ريح باردة أفـــرغت دماغه من الأفكار، ورغم أن الجدّة قد خرجت إلى الحديقة فقد كان لا عزاء له.

الفهم هو تلك اللحظة التي تنساب فيها الفكرة من شيئها وتصير جــزءاً من وجوده، ظهوره ومعانيه. هذه اللحظة ما زالت موجودة في ذاكـــرته، وانتظاره كان وسيلة للاقتراب منها. في الذاكرة يحسّ بالريح التي بإمكانها إفراغ الدماغ من الأفكار.

الذاكـــرة غابةٌ، صحراء. الذاكرة مشهدٌ طبيعيّ منقولٌ من أنهار وروافد، مجرى جداول، قنوات. في المشهد الطبيعي يسيل الزمن. بعض الأماكن تتمدّد فيها الأنهار والجداول إلى الخارج، حيث ينـــزلق الزمن صافياً وهادئاً، أو يضيق ويندفع بسرعة عالية عبر المسيل، منحدراً فوق المـــسقط السريع مواصلاً انسيابه عبر قنوات ضيّقة تؤدي إلى الأعلى، عمودياً في قفزة جيّاشة. في المشهد الطبيعي توجد بحيرات معتمة، تجثم ميتة وهامدة ولا تعكس سوى الغيوم التي تنساب عابرة، أماكن أخرى يتشكّل فيها الزمن مثل دلتا تنقّع أماكن كبيرة وتجعلها غير سالكة. في النهاية ينسكب الزمن في البحر.

في مكـــان مـــا في المنظـــر الطبيعي توجد كلمة "دائماً". إنّها زهرة حَـــوذان أو ذبابة يوم في سباقٍ للتفقيس. إنها زهرة نادرة صغيرة تنمو على صـــخرة قاحلة، تتوق لموت البشر. إنها الأرض التي تنخسف فوق الشمس وتنـــصهر. إنها الشمس المطفأة المعلّقة فوق نهاية آخر ضوء لها في كون لا يتحرّك. إنها قطرة تستجمع نفسها وتتلاشى في قطرات جديدة.

لكـــنّ صدى المعرفة لا يُمسّ. بين حين لأخر تراوده ذات الفكرة من جديد، فكرة تتواصل إلى اللانهاية ولا تحاكيها فقط، بل تنساب مثل خـــطٍّ مـــستقيم يواصل مسيره إلى الأبد في كلا الاتجاهين من دون أن يـــتقوّس، خطّ مستقيم كبقيّة الخطوط والنقاط الأخرى في الكوكب، لـــيس انعكاســـاً، بل تطابقاً مع النقطة، مستمرّاً ولا مجزّأ: الفكرة عن اللانهائيّ هي التماعة ضوء في بيضة.

الفصل 6

كان عليه أن يقطن مع جدّه وجدّته في منـــزل على البحر. كان منــــزلاً متميّزاً ولا يبعد عن البحر كثيراً، حتى أن المرء كان بإمكانه سمـــاع الموجات وهي تصطخب في البحر. ها هنا نشأت أمّه وأخوهما، والى هنا جلبوه حين كفّت الأشياء عن اللمعان.

حينما دخل جدّه قادماً عند المساء من عمله في المشغل جلس عند طاولة الكتابة وشرع بقراءة صحيفة. سحب عدسة التكبير من الجارور وأخذ يطالع الصفحات بإمعان، أضحت عيناه كبيرتين وهما تحدّقان عبر الــزجاج الــسميك، وكان يطلق نخيراً عند القراءة. ضحك، وحاول إيكـــاروس أن يــضحك بذات الطريقة مثله. في بعض الأحايين كان يضحك فقط لكي يجعل الصبيّ يحاكيه في الضحك.

في الجارور تقبع ألماسةٌ. كانت تستقرّ فوق قضيب معدنيّ بمقبض يـــد مـــصنوع مـــن خشب شجر الجوز، وكان يستعمله حينما يقطع الــزجاج. سحب الماسة بحركة سريعة وواثقة فوق سطح الزجاج مثل حـــذاء التزلج التي ينـــزلق فوق جليد حديث العهد. بعدها طرق بحذر فوق لوح الزجاج، قرقعة، ثمّ لم تعد الأشياء كما كانت من قبل. كان عليه إيجاد طريقة جديدة لربط الأشياء مع بعضها.

يقع المشغل خلف المنـــزل، وهنالك كان يعمل الجدّ من الصباح حـــتى المساء. الأخشاب كانت تصل في قطع غير منتظمة، حيث تقطع

ثمّ تُــركَّب مــع بعضها كخزانات ملابس، كراسي وطاولات. كان المشغل في فوضى يملؤه الغبار، في كلّ مكان علّقت مناشير وكلاليب. علــى الــرفوف تقبع المسامير والبراغي في علب وصفائح شبه مملوءة بالــصباغ والــصمغ. ماكــنة الصقل، شريط المنشار الدائريّ وتخوت النجارة تحتشد بها الغرفة. من هنا ينبثق كلّ شيء.

الأخشاب في مخزن التجفيف تفوح برائحة صمغ الراتينج المنعشة. قــضبان، منصّات، ألواح، خشب معاكس، صفائح مكشوطة، خشب بلّــوط، زان، جــوز، خــشب ورديّ، قطع من الأبنوس والسنديان الــسحريّ، مسودٌّ من الماء وحامض التّانيك، تنتظر الآن لكي تُستخدم في اقترانات خاصّة إلى حدّ ما. كان الجد يشتغل، وبانتظام كان ثمّة أداة تختفــي، إزمــيل، درنفــيس، مطرقة. إنها تتدفق مع المكاشط ونشارة الخــشب في بلبلة من كائنات شبه مكتملة. كان المشغل مسحوراً، هنا بإمكــان قــوانين الطبيعة أن تُلغى، تتغيّر، تُحرَّف. لذا فقد كان مكاناً خطــيراً أيــضاً، شاهد بنفسك كيف ينقصه الإبهام، كان ذلك بسبب فأرة النجّار المزمجرة في زاويته، إلى هناك ينبغي عليه عدم الذهاب.

مــن هذه الفوضى كانت كلمات المكان تنهض، كرسيّ مفاجئ منجّد بجلد يفوح بالسواد، طاولة مطوّقة بخشب ماهوغانيّ، طقم أرائك بخمــيلة حمــراء. كــان يقصّ الأخشاب في الخارج، يغيّر من أشكالها ويــصقلها، عثرَ على طريقة جديدة للمؤالفة بين الأشياء، يتمّ إلصاقها وتلمــيعها بالــشمع، ولا تمشِ في الطريق، يا إيكاروس، لكنه يريد أن يجرّب بنفسه، بندقية، سيف، مزمار، جناح، تحليق لا نهاية له.

بعد ذلك حين أخذ الناس يقتنون الأثاث من أماكن أخرى شرع الجــدّ بــصنع التوابــيت بدلاً من ذلك. لكن في ذات يوم أخبره أحد الوكلاء أنّ من الأربح له أن يبعث بها إلى ألمانيا. قضى الجدّ وقته بالقيام

بتـــصليحات صغيرة للناس والوقوف في الحديقة وهو يتطلّع إلى البحر. حـــلّ وقـــت العصر ثمّ المساء وبدأ بالسعال، وفي الليل بدا وكأنّ من المـــستحيل عليه التوقّف عن السعال، لو أنه فقط يتوقف عن السعال، وكـــان علـــيه أن يمـــوت، وأحـــدهم اتصل في منتصف الليل وشرع بالنحـــيب. أوقـــدت شموع، شكل آخر من الشموع، ذلك النوع من الشمع الذي لا يحترق سوى في صالات العمليّات.

الفصل 7

الأشياء؟ من أين تأتي يا ترى؟ كان يحدّق في حصان البحر اليابس الملقى على الطاولة في جواره. إنها ذاكرته التي ولّدته. في البداية كان قلقاً من أن يكون هو وحده فقط من يرى هذه الأشياء. لكن أحدهم أخبره أنه تمّ العثور على كلبٍ ميت تحت سريره، وأن الممرضات يتشكين قبل كلّ شيء من النفاياتً التي تتراكم في الصالة. ذات صباح وجد عدسة التكبير قابعة تحت مخدّته مع قاطعة الزجاج. في اليوم التالي كانت ثمّة سكّين نطّاطة. الأشياء تقدم فقط، فاترة وحقيقية، لم يعد لها مكان فوق الطاولة، في المجرّات أو في الخزانات.

أشياء وأدوات. سلع عديمة الجدوى، بومة محنّطة، لعبة شطرنج، منظار نجوم وصندوق مليء بالفراشات وجماجم الطيور. ماذا سيفعل بكلّ هذا؟ كلّ صباح يطلع يأتي بأجسامٍ جديدة معه. الممرضات يحاولن بلا جدوى الحفاظ على بعض النظام. الطبيب يشرح له شيئاً عن آلية الذاكرة، عن أطلس الدماغ للزمن، لكن كلمة "ذاكرة" كانت قد فقدت معناها.

الفصل 8

عند طرف قنّ الدجاج والمرحاض يوجد قفير نحل في محيط دائريّ مطليّ بالأبيض مسقّف بلوح أسود مثبّت بمسامير زرق. كان الجد وحده من يمكنه الدخول إلى دائرة الحُجيرة. حين يتوجّب عليه تبديل ألواح الشمع، رشّ مضادّ لطاعون النحل أو جني العسل منه، كان يلبس رداءاً يجعله شبيهاً برائد فضاء. كان لقبعته شبكة تنسدل فوق وجهه، ويرتدي قفافيز طويلة تصل إلى مرفقيه. الدخان كان ينبعث من الإبريق الذي يمسك به بإحدى يديه فيما يفتح الحجيرة باليد الأخرى. كان يهدّئ النحل بحركات مدمدمة. في الصيف يكون الهواء ساكناً خلف المشغل، وإيكاروس يجلس بالقرب من البقعة الممنوعة. لم يكن هناك غير الصوت المنبعث من نحلات تحطّ وتطير في شكل دائريّ، كانت مثل كائن حيّ ساخن في طريقه ليتوالد من نفسه.

ذات صباح وصلت علبة خشب بالبريد، الجدّ أحضرها وأراها إيّاه. قال له بصوت عال: تعال لتلتقي بالملكة الجديدة. وهنالك في الداخل خلف مشبّك معدنيّ كانت الملكة تزحف حول المكان. وضعت بحرص داخل حجيرة النحل. قرضت العاملات طريقهن إليها عبر جدار العسل وأطلقن سراحها.

– إنها قويّة، قال الجدّ، وهي بحاجة لقوّتها لأنّ عليها الآن أن تقتل الملكة القديمة وتحلّ محلها. وبعد ذلك ستوجّب على الذكور إخصابها

واحداً تلو الآخر. إنهم يعيشون لأجل هذه اللحظة فقط وإلاّ فلا فائدة منهم. إنهم يُطعمون من قبل عاملات النحل طوال الربيع، لكن في يوم معـــيّن ســـينقلب جميع من في القفير ضدّهـم، وسيُقتلون. يسمّون هذا موقعة الذكور.

فـــوق القفير ينعكس شعاع ضوء أسيديّ، وإيكاروس ظل واقفاً وكلمة "موقعة الذكور" تتراقص على شفتيه الفـم.

الفصل 9

- هل هذا أنت يا جدّي؟

كان يضطجع هناك ولم يكن بالمستطاع التعرّف عليه. كلّ نَفَسٍ منه كان موجةً ثقيلة تنزلق فوق الصدر. كان الموت يتنفّس عبر جسده، والجسد بلازما حمراء موثقة إلى السرير بأنابيب البلاستيك لا غير. موجة متشكّلة تنبثق فوق الشاشة. ثمّة صوت مع كلّ ضربة قلب وبين الضربات سكون يطول أكثر فأكثر. العائلة قدمت من جميع الجهات وجلست حول سريره، لقد قدموا ليستقبلوا الميّت.

الأقطاب الكهربائيّة كانت تقيس نسبة الملح والسكّر في الدم، لكن في داخل الجسد واصلت الانسياب سويّة، جذوع الأشجار تهاوت من جميع الاتجاهات فوق بعضها في ماء جيّاش أسود. إنه يتنفّس. كان ذلك الشيء الوحيد الذي فعله. كان قنديل بحرٍ شهّاقاً ينساب عبر المحيطات. ثمّة مياه في الرئتين، لكنهما واصلتا العملَ بثقّة، موجة تخبط السكون. فجأة رفع نفسه، فتح العينين ونظر مباشرة عبر الواقفين حوله بنظرة سينيّة. رغوة حمراء جاشت عالياً من الحنجرة. حلّ الصمت، والماكنة أغلقت. جميع الأصوات دفعت بعيداً عن الميت.

كانوا الأحياء، الأحفاد الأحياء، وفت لك الليلة ناموا أسفل النوم. لم يناموا بمثل هذا العمق أبداً. استيقظوا خجلين من عمق نومهم، خجلين من أن يكونوا في حالة يقظة. جلس إيكاروس على حائط

المقـــبرة و لم يكن راغباً بالدخول. يتوجّب أن ينتهي الدفن، وأن يكفّوا عن البكاء. لكنهم قدموا مع أكاليل الزهور وهم يتحدثون بخفوت مع بعضهم ثمّ تفرّقوا من جديد.

بـــين حـــين وآخـــر ينبثق أطفال يحملون وجوهاً، نسي الجميع كينونـــته. بعض الأحيان يتمزّق أحد الوجوه ويتلاشى. وجوه أخرى عثر عليها مثل ثياب شتويّة قديمة في إحدى الخزانات. لِمَ نال مثل هذا الـــوجه الذي يحمله؟ لِمَ اختاره؟ استطاع بين آونة وأخرى رؤية وجهه الخاصّ من الداخل، منـــزلقاً من الجمجمة مثل قناع. ماذا يشبه هذا؟

تحـــت ســـطح الأرض تحلّل وجه الجدّ واختلط بالتراب. المشغل مهجـــور. أخـــذ الآخرون ما أمكنهم استعماله. كان المطر يقطر من خـــلال السقف، والأخشاب تبلّلت. المكائن صدئت. نسيج العنكبوت اتّسع. ثمّة سكيتشات ملقاة لأشياء لم تكتمل بعد. رائحة حامضة غريبة تنـــبعث من ملابس متعفّنة. الجثّة تضطجع في أحد التوابيت التي صنعها أحد الأحياء. إيكاروس يتخيّل التابوت. ماذا يوجد في داخله يا ترى؟ ســـقط الـــتابوت. والجدّة قالت إن الدفن قد تمّ. توقّف الجد أن يكون "جدّاً". لقد تحوّل إلى شيء تحت الأرض.

عـــادت الجـــدّة تدعى "ريجمور" من جديد. توقّفت عن تناول الطعـــام. كانت تهزهز نفسها في كرسيّها ذي المسندين ونسيج الحياكة المتـــشابك في اليدين. ظلّ إيكاروس يقطن معها برفقة مفردة "عائلة"، مفـــردة مجـــوّفة غريبة كانت قد فقدت معناها. كان الآخرون الذين يـــشكّلون أجـــيالاً، موجات من الوجوه تختلف قليلاً وأصوات تشابه بعضها بشكل محيّر في التلفونات.

أضحت تعيش الآن أثناء الليل، تلبّست صفات الجدّ، جنوحه ذي الطـــراز الخـــاصّ، سقوطه المختفي في هاوية الكون. عند النهار كانت

تضطجع في السرير الكبير وتتابع إيكاروس بعينين ذئبيّتين. ذات صباح اختفت. ترك هو البيت ورحل إلى كوبنهاغن، وحين عاد بعد مضي عدّة سنين إلى المنزل وجده ما يزال خاوياً. ثمّة مستعمرة من الخطاطيف بنت أعشاشها في أغلب حُجُرات البيت.

الفصل 10

- استيقظ الآن، ها هو دواؤك.

صوت الممرضة ينأى.

نعـــم، إنها رائحة صمغ الدابوق، الاكتئابات والخشب المملّس. مكاشـــط الخشب. محارب جريح. اكتشافات. شيءٌ يتعلّق بحياته ومع ذلـــك لا يتعلّق. حلمٌ مملّس. وكذلك الريح. الجثث. الجثث، يجب أن تسجّى في التابوت. طلاء تابوت بالأسود. أسود مثل فحمة. أسود مثل ثقـــب. خطر، خطر، محارب، ستحبّ الموت. من يصل أخيراً سيكون في الطنجـــرة الـــسوداء. "أنت أم أنا"؟ سيكون أنت. خطر. في خطر. أب. والـــد. عـــرّاب في مرحاض. ستحبّ الموت. محارب. بندقيّة من خـــشب، رصاصة صدئة، ركضة زكزاك تشير إلى الحفرة في الأسفل. مـــن التراب. إلى التراب. تراب في الفم. تراب في الرأس.كم المساحة الـــتي يملأهـــا إنـــسان؟ 203 مرّة في 66 مرّة في 51. خشب طبيعيّ؟ بضمنها الضريبة والتسليم. من ضمنها. إكليل زهور، عربة نقل الموتى، شاهدة، منشدو جوقة وتنفّسٌ مكتوم. بضمنها كلّ شيء. اختر، اختر، ابعد. بعد. ابعد. بعد. نعم، لا. كلاّ، نعم. كلاّ.

- ما هذا الذي حدث؟

لم يكـــن في مقـــدورها استـــشفاف ذلك. ثمّة حالة مهيمنة من اللاتحديـــد تـــوجّب عليه فيها أن يواصل. إنها موجودة في فضاء مركز

المبـــيعات. في بيوت السلالم في المباني المهدّمة، زجاج الأماكن المحترقة. كومة أوراق ذابلة في الملعب الفارغ. صفّ مدرسيّ متنقّل بين حصّتين غـــير مجديتين. تيهٌ ونعاس. استيقظ عند انطباق الباب خلفه، بعد ركله خارجاً نحو منظر طبيعيّ تحرقه الحمّى. حواف أمكنة ومرائب سيارات. أماكن للتجوال، أماكن لإنهاض التنانين.

أجساد وأسيجة مكهربة وورقة جليديّة ومعادلات معقّدة لا يمكن حلّهـــا، وأنظمة دروب وبيوت صيفيّة وأحياء بأزقّة حديثة الأسفلت، حـــيث الفتيات ينتظرن لساعات طويلة بدرّاجاتهن الهوائيّة اللحميّة اللـــون. بـــين حين وآخر ثمّة حفل يزيح كلّ جانباً باستبصار مفاجئ وسُكْر. أماسٍ طويلة مزبدة مع حبوب نومٍ مذابة في الكحول، قبضة في الحجـــاب الحاجـــز وهبّة ريح خلل العشب الجافّ أمام سوبرماركت محترق.

غـــارة ضد الزجاج وجميع ألواح النوافذ. رغب أن يرى النجوم تـــضيء، أن يراها، يحدّق مباشرة في بواطنها المتّقدة بالغاز المتفجّر، إلى أن يختفي كلّ شيء برفسة متشنّجة، والأجساد تغرق في خليط لا يمكن اجتيازه من القيءٍ، العرق والمني. يمكن للأشياء أن تتبدّل طوال الوقت، بـــسهولة لا مثيل لها يمكنها أن تتبدّل وتصير غريبة وكثيفة ولا تختفي ثانية، إلى أن تعود للتحوّل من جديد.

بعد ذلك لن يكون هنالك من يعرف ما الذي حدث. لن يكون هـــنالك سوى الآثار الحمراء على العنق وذاك الذي لا يمكن الحديث عنه. شحرور أبله جلس يغرّد على هوائيّ التلفزيون، والمطر ينهمر فوق شوارع ممتدّة نحو أقاصي أخرى، وفجأة يشتعل كلّ شيء بضوء ساطع في الغرف الخانقة.

– هالو؟

أنادي كوكبة الجبّار. أنادي ما وراء الكون والماوراء. قرادة تجثم علـــى الحقو، تمتصّ الدم في ظلمة لا تصدأ. سبتمبر بفُرَشٍ من خشب التنّوب. القمر ينثر النجوم الأولى على مخمله. نجوم المساء. كلاّ! ما من نجمـــة واحـــدة في الـــسماء. كوكب؟ نعم، كوكب. كوكب يشبه الأرض. المشتري مع أقماره المصطفّة بانتظام يُرى من خلال تلسكوب الجـــدّ. وبعيداً يبدو دربّ التبّانة، حيث كوكب الجبّار يقوم بالحراسة، محـــارب بـــسيف وكلاب. مَلِكٌ. ضباب الكوكب لا يتماسك سوى بخـــيط الـــرعب والتخريم. أنادي الجبّار، أنادي ساعتك الرمليّة، حيث الـــنجوم تنـــزلق مثل حبّات الرمل. أنادي الدبّ الأكبر. أنادي النجم كاســـتور وبولكس. أنادي. همسٌ مهشّم. الانفجار الكبير. جرحٌ في طـــيران ليليّ عبر جلد السماء. جرحٌ، جرحٌ، حديث. حديث جرح. ضياء في السماء. قبلة فوق صوتيّة من فتاة مندسّة في سياج.

– إيكاروس! استيقظ!

تمّ إنـــشاء متنـــــزّه ذي مصابيح ذاتيّة التنظيم على امتداد نسق الـــدروب المُـــسَفْلَتة، حيث الناس ينـــزّهون كلابهم في الهواء الطلق. المصابيح تضيء على امتداد الممشى، و لم غيره يكن هناك برفقة المصابيح والظلام. سلسلة أضواء تلفّ على نفسها داخلة وخارجة من اللاشيء. وكلّ حجر هو وعد بزجاج وعتمة أكثر. لأنّ الأمر كان يتعلّق بالعثور علـــى حجر يستقرّ براحة في اليد. كان هناك حجر وزجاج ومصباح لاصـــف انطفأ بنفخة مباركة، وصوت الغاز المغبِّر الذي يجزّئ ذاته في الجو. كان الصوت صوت زجاج وحجر ذاك الذي ضرب الأسفلت، خامة ضوءٍ أضحت جزءاً من الظلام. نشوة قصيرة، ارتياحٌ وانطلاقة في الفضاء الرحب.

– لماذا؟

- هكذا!

الحمّـــى أوفى أصـــدقاؤه، إنها تقرأ خيالاته بصوتٍ عالٍ. ترعى أحلامه حينما يكون نائماً. الحمّى تضعه حين ينام فوق سجادّةِ صوّانٍ خـــضراء، مخـــدّة إبَرٍ، مناظر طبيعيّة لا توجد سوى في دواخله. ذلك، الـــذي هو - يعرفه - بالتأكيد. ذلك، الذي يحدث. ويوجد. لأنّ الدم يحـــتاج إلى الهدوء ليعمل. لأنّ على المرء أن يستلقي ولا يتحدّث، بل يصغي لحكايات الحمّى في الدماء، إيقاع القلب، افتتان يحترق ويضيء أشـــدّ فـــيما هو يموت، خوف من عدم الاستيقاظ إلى الأبد، خوف العقـــل، الإدراك، وانظُـــرْ، كوم لحمٍ بارد يضيء في قاع المستنقع، أن تـــتحدّث دون أن تـــرى، الحمّى تعرف ذلك، إنها تراقبه، إنها العَرَق المتقطّـــر من الصوت، إدراكات الحواسّ التي لا يسبّبها العالم الخارجيّ. الحمّى وسيلة لفهم كلّ شيء، فهمٌ لمرّة واحدة فقط ثمّ نسيانه في الثانية ذاتها. إنها قطعة محترقة من الفحم تضيء في موقد القلب المسحور.

الفصل 11

لم يعد الشتاء هنا، بل الصيف. هنالك ستائر للنوافذ. إنها لا تهتزّ. ثمّة امرأة واقفة عند سريره. إنها أكبر بقليل من حجم الإنسان. السكون يغمـــر المستشفى، لكن هنالك شحرور يغني بلا قلق من البعيد. نغمة العويل عنيفة، ملحاحة. لم يكن بالإمكان القول أنّ الوقت نهاراً كان أم ليلاً.

إنهـــا تتفحّـــصه. إنها باردة، منحوتة من مرمر. وجهها شطران متـــساوقان. إنها تتفحّصه. هو يلاحظ أنه ليس بإمكانه تحريك نفسه. كلّ شيء مرهون بنظرتها.

لو أن بإمكانه تحريك إصبع، طرف قدم، لأمكنه أن يتملّص. لأنّه يعرف جيداً من الذي كان يقف هناك عند نهاية سريره. هنالك أشياء كثيرة يجب فعلها. لو أمكنه فقط أن يخبرها بذلك، لكن حنجرته بقيت جامدة.

كـــلّ شيء هادئ. الشحرور يغنّي. من هذا الذي يغنّي له؟ لعلّه يحتاج فقط أن يصغي له، لعلّ الإصغاء يكفي؟ أغنيته تملأه، تفرغه، الأغنـــية بـــلا زمن، لا شكل لها ولا مضمون. دائماً. نغمة العويل تختفي وتُستبدل بحنان غامش نحو هذا الطائر، إصغاء تجريديّ لحنجرة الطائـــر المرتعـــشة علـــى شجرة في باحة المشفى، والتي يواصل ملأها بموسيقى غير معقّدة.

أغنية الشحرور محته. لقد مات.

- ألا يمكنكِ الانتظار؟

كـــان فمـــه جافّاً. حرّكت رأسها بإيماءة يمكن أن تعني نعم ولا سويّةً. بعدها انتبه إلى ذراعه. رفعها ليدرأ بها عن نفسه ثمّ استيقظ.

الفصل 12

الـــنوارس تحلّق زاعقة عبر نوافذ المستشفى، تجول دائرة في الريح خارجـــاً، تستقيم وتخبط عالياً في الفضاء، لتهبط بعد ذلك منقضّة من قاع السماء. هبط أحدها في سريره. بلا حياة.

- نوارس.

إنهـــا تصرخ في دواخله. إنّه هو الكلمة، نونٌ طائرة، نورٌ وسين، جـــناحان مثبّتان إلى مفتاح بهيئة حرف "ع" بمواجهة موسيقى متموّجة مظلمة.

الـــنوارس تتساقط. يخبط بعضها بعضاً في الهواء، تنهار وتنقذف مثل قمصان من حبل تجفيف.

نعـــم! كُلْ وقَعْ. التقطَ قطعة جديدة من الخبز من داخل الكيس وغمـــسَها في علبة قصديريّة. إنها تموت في ذروة حركتها. كان يقف فـــوق سقف السايلو الإسمنتي عند طرف البحر، وعند السلّم الحديديّ، عـــبر شارة ممنوع المرور، كان من السهل خلع القفل الدوّار. النوارس تحلّـــق خفيضة حول المكان أسفله. كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى وتصطدم بالأسفلت بخبطة مدهشة، أبيض على أسود.

كانت تتساقط من الشمس، تصفق بأجنحتها بلا انتظام، مثل صبيان يحاولون النهوض بأجنحتهم من جديد دون جدوى، ملائكة صغار، ريش ولحم. لقد سقطت، النوارس الخسيسة، النوارس اللعينة القذرة.

الفصل 13

- إيكاروس! من غير الممكن أن يُسمّى أحد هكذا.

كان وجهه يبعد خمسة سنتمترات عن وجه إيكاروس.

- إنّه دورك الآن.

كان حجمه أكبر، لذا فهو الذي يقرّر.

- القـــوانين في غاية البساطة: تقود ودوّاسة البنـــزين على الآخِر طـــوال الطريق، وينبغي عليك أن لا تفرمل، تدوس بأقصى سرعة حتى تصل إلى الموضع الذي يتقاطع فيه الشارع مع الطريق الرئيسيّ، وعليك أن تـــرفع يـــديك كلاهما عن المقود، ولا ينبغي أن تتلفّت إلى جانبيك لترى فيما إذا كانت سيارات هناك، وبعد ذلك يتوجّب عليك اجتياز الشارع ويداك فوق رأسك ولا تفرمل قبل أن تصل إلى الجانب الآخر من الشارع.

كان الأكثر تحمّساً ويدعى بورجا، وكان يسمّى هكذا لأنّه ذات يـــوم في درس البايولوجـــي وقف عند السبّورة ونبتة في يده، ثمّ كتب اسمها بحروف غير دقيقة. ولم يدع المعلّمون الأمر يمضي هكذا، رغم أنها كانت نقاطاً رخيصة، لكن يا صديقنا الصغير ألا تقرأ لنا ما كتبت.

- ب. و. ر. ج. ا. ك. ي. م.

كان واقفاً هناك مع رائهِ، انـــزياح غير مستوجَب، معنى غير متوقّع، حيوان اللغة فعلها من جديد، أنهش أنيابه في الموضع الأشدّ

إيلامـــاً. تلـــوّوا من الضحك فيما هم يزعقون: بورجا كيم، كيم بورجا.

– استيقظ الآن. لقد حان دورك. سُقْ.

الفصل 14

الوقت صباحاً. شرخ في الجمجمة.

ذات مرّة كان هنالك ممرّ. ممرّ صالة. الأطباء والممرّضات يبتسمون بودّ.

- حافظ على هدوئك بضعة أسابيع أخرى. كلّ شيء سيكون على ما يرام. وداعاً، وداعاً.

الباب الزجاجيّ للمستشفى الحكوميّ ينزلق منطبقاً، وهناك كان يقف على الرصيف مع عصابة كبيرة حول الرأس وعلبة كارتون مليئة بالأشياء التي انبثقت من دماغه.

السيارات تمرّ عابرة بمصابيح مضاءة في شريط مضيء يجتاز شارع بلادم، فشرع هو بالسير مستشعراً الإيقاع الحيّ المنبعث من قدميه على الرصيف من جديد.

كلّ شيء عاد كما كان. الأشياء اتّخذت أمكنتها الطبيعيّة. شعور غامر بسعادة كبيرة يتدفّق. عانق في طيشٍ رجلاً عجوزاً عند موقف باص ودمدم مترنّماً باتجاه شارع فلفاي، جادّة نروبغو، جسر الملكة لويزة. كان يترنّم بملء حنجرته.

كان راقصاً على الحبال، يسير شاهقاً فوق كوبنهاغن على نغمة عويل رهيفة، سعيداً بأن يرى المدينة من جديد. حيّاً في فوضى كوبنهاغن واضطراب الحشود. كان يحمل الصندوق، فيما قدماه تسيران وحدهما باتجاه البيت.

3

الفصل 1

من منظور مروحيّة في دوريّة، حلّقت لتوّها من مطار كاستروب، أو مـن عـين نـورسٍ مرفوع في لحظة آنٍ عالياً في الفضاء بتيّار هواء سـاخن، تبدو بواطن كوبنهاغن مثل دماغٍ. مركز المدينة البائن، الذي يتبع تقريباً حدود المدينة ذاها في القرون الوسطى، ما يزال يقع في مركز المكـان الذي ضرب فيه القاطنون الأوائل مضاربهم قبل آلاف السنين علـى الساحل، عضو معقّد يموج بطيف رماديّ، كاكي وأحمر، محرّكٌ هائلٌ في حركة مراوحة تتّسع وتتقلّص، يضعها في قوقعته، يطبق عليها ويحتضن البحيرات، ناحية آما وضغط الضواحي.

جـسمٌ كرويّ كثيف، مكعّب من خطوط وخدوش، مجموعةً، محـدّدة ومقطّعة بالجادّات والشوارع. يتوجّب فعل الكثير لوضع حدّ للفوضـى. حقـلُ توتّـر عال ذو اتجاهات ومنافذ، جوهرٌ مفكّر حيّ يتحـرّك بنَقـرة متلألئة. خليط. إذا تحّرك المرء بضعة شوارع في أحد الاتجاهات تغيّر الأحياء ألوانها، رائحتها وطعمها. فإذا ما تحرّك في اتجاه آخر تتحوّل أجزاء المدينة إلى مستطيلات تعاسة ووجبات منتظمة.

ربمـا كانـت المدينة تتخيّل نفسها شيئاً آخر. إنها تريد أن تلتفّ حول نفسها، تلتقي بنظرتها الخاصّة. لكنّها لا تزحزح. الناس هم الذين يتحرّكون في داخلها. الناس لديهم خططهم. يغيّرون مواضع أشياء من أعلى الدلالات: أوراق، نقود، أجسام، أطفال. يجولون على عجلٍ في

فضاء المدينة. يتحدّثون في هواتف، يضغطون على أزرار، يدعسون على دوّاسات السرعة، يخفّفون أوزانهم في نقاشات، صفحات كتاب، أجساد.

إنهم يقدّمون خدماتهم لبعض، يعلنون الحرب على بعضهم أو الولاء الأبديّ. يجنون نقوداً يمنحونها من جديد. يشيدون منازل، يعقدون قرارات مصيريّة، يحافظون على مواعيد اللقاءات، خواتيمها، انطلاقها، يمارسون طقوساً، يتناسلون أنفسهم، يتجرّدون من ملابسهم ويستلقون بانتظار الموت. في أماكن عديدة تؤكّد المدينة ذاتها، تكون عند حسن ظنّهم بأنها ستكون هناك حينما يستيقظون. المدينة تنقل ثقلها ببطء من إحدى ساقيها إلى الثانية، وبين آونة وأخرى تتبادل الأماكن مواضعها، لكنّ مع مرور الزمن تعود إلى المواضع التي جاءت منها: أماكن تجاريّة، مساحات أرض، مقابر، كنائس تربض فوق كنائس، بيوت تجارة فوق بيوت تجارة، متنزّهات فوق متنزّهات، شوارع فوق شوارع.

كريستيانسبورغ، جزيرة سلطة المملكة التي تقبع معزولة عن المحيط الخارجي. مبنى البرلمان يتهزهز قريباً من المكتبة الملكيّة. القوّة والشرف يتشاخران على بعضهما، قابعين عند الشاطئ القديم حيث كانت البداية مع السردين والقمح في أكياسٍ من جلود الحيوان. كانت كوبنهاغن محطة استراحة مؤقتة للصيّادين وجامعي الطرائد وهم في طريقهم إلى غابات شيلاند أو السويد. هنالك على الشاطئ كانوا يجلسون وهم يلتهمون شرائح لحم الثيران والمَحَار.

ما الذي يدور في داخل دماغ المدينة حيث تقبع الذاكرة؟ عند الليل يجعل السابلة من المدينة نحيلة، فتصير شفّافة. المدينة تحلم أحلاماً عنيفة، صور الشوارع وخطط المدينة تقرقع بخفّة، طرقات تضاعف

نفسها، تتبادل الأسماء، تقايض وتتحوّل تحت جنح الظلام. وعندما يحلّ الـــصباح، حيث الأشياء تكون على حافة خطر التلاشي، يستطيع المرء أن يستيقظ وهو على علم بأنّ المدينة أيضاً أضحت مدينة أخرى.

الفصل 2

أصــــبحت كوبـــنهاغن مرئيّة لأوّل مرّة، كلّ دمغة بَصَريّة تنطبع بـــصورة لا تمحـــى على الذاكرة. كان يضع قدمه الأولى أمام الثانية، المدينة تُبعث من تحته، الأسفلت يتجمّد بسرعة البرق تحت بواطن قدميه في اللحظة التي يضعهما فيها على الأرض، الأشياء تنبثق تماماً في مكانها الصحيح ما أن تلتقي نظرته بها، خلف واجهات المباني لا يوجد سوى افتراض لعَدَمٍ أكبر، غير مكتمل.

مسافة على امتداد البحيرات ثمّ يكون في البيت. تلك هي اللحظة المقدّسة، على كلّ حال ولج مباشرة إلى الداخل وبقي واقفاً في منتصف الشقّة، رمى علب الكارتون جانباً وحاول أن يترك الحجرات تنـــزلق إلى أماكـــنها. لقد استقبلها بحميميّة غريب، ونظرته تتراكض في جميع الزوايا. الغرف تعكس نظراته مُزاحةً بعض الشيء، فيعمد إلى تصحيح ذلـــك. عمّـــا قريب تكون الشقّة في موضعها، وسيمكنه القول أنه في البيت.

لكـــن ما الذي حدث؟ قبل أن يحدث الشرخ في جمجمته كانت ذاكـــرته كبقيّة الآخرين، أمّا الآن فيبدو أن لديه القدرة على الولوج في أيّ منفذ من منافذها المعقّدة. الأشياء تعلن عن نفسها فيما حوله، فقبل وقـــتٍ طـــويل من تذكّرها تكون قد تجسّدت فيزيائيّاً ودون ظروف مخفّفـــة. فجـــأة ينبثق كرسيّ الجدّة ذو المسندين في منتصف الأرضيّة.

الدماغ يعيش حياته المظلمة، يقتفي نظاماً جديداً ومجهولاً يتوجّب عليه أن ينسّق ذاته تحت ظلّه.

ألقى بنفسه على كرسيّ الجدّة. أين عليه أن يبدأ النسيان؟ نغمة العويل ما تزال تطنّ في صندوق الجمجمة. حجر طاق. كم حجر طاق يوجد في كوبنهاغن؟ إذا كان صحيحاً أنّ الصدفة ليست سوى نقص في إدراك الترابط السببيّ فعلى المرء أن يحاول الوصول إلى هذا الإدراك. لكن نغمة العويل تجعل من الصعب عليه التفكير بوضوح. كلّ فكرة هي عدة أفكار، وكلّ فكرة تنتهي بسقوط مفاجئ على هيأة صور لا ترغب بالزوال.

تذكّر كلّ شيء ليس أمراً مزعجاً دائماً. الأشياء تأتي من تلقاء ذاتها بالتأكيد. لم يكن بحاجة سوى للقائه بها، التقاطها، الاشتراك في حواراتها، فرصة ليست في متناول أغلب الناس. قرّر في نفسه أن يمضي في مشوار. كان مساءً جميلاً وجافّاً. الأضواء المتلألئة على الجانب الآخر من الميناء تسحب وراءها أثراً من جليدٍ ليليّ شفيف، ورغم أن الظلام حلّ فقد كان أصوات المدينة تلتمع بصفاءٍ في دماغه.

حينما عاد إلى شقته وجد البيانو العتيق قابعاً سادّاً المدخل. دفعه إلى داخل الصالة، حيث طقم الأرائك ذات المخمل الأحمر قد انبثق. طفر وترٌ من داخل البيانو في مكان ما بشكل فوضوي. لم يكد قد ابتعد عن شقته لأكثر من ساعة حتى وجدها مكتظّة بأشياء كبيرة وصغيرة لم تكن موجودة هناك حين غادرها. ركام شظايا من حاجز زجاجيّ مهشّم، مضرب تنسٍ خشبيّ، فأس، كاميرا فورية، رسالة مع شفرة حلاقة.

ما الذي سيمكنه فعله مع كلّ شظايا الذكريات هذه، سقط المتاع الذي لا قيمة له من الذاكرة الشفّافة؟ حاول أن يرتّب الأمور، لكن في

كلّ مرّة يمسك فيها شيئاً بيده يتلاشى هو في شلاّل من الخواطر وصور ذكـــريات مضيئة وصافية. لا يجدي التمشّي نفعاً. إنها الوسيلة الوحيدة التي يمكنه إفراغ الدماغ فيها، لكن لن يمكنه التأكد أين ستختار الأشياء تواجدها فيما بعد.

لـــذلك ســـار طوال الليل واليوم الذي تلاه أيضاً. ظهرت أسماء الضواحي على يافطات، فريدريكسبيرغ، آما، هيلروب، شارع فانجذه. تلتها أسماء أخرى. مقبرة ميندلون، شارع كروكوديل. الشوارع تتموّج أمـــام ناظريه. شارع أوستبان. خبَّ مسرعاً باتجاه جادّة أندرسن، إيّاك والتفكير، جادّة فيبر، فقط واصل المسير، جادّة تانج. سِرْ ثمّ سِرْ، ساحة مـــوزارت. استطاع أن يستجمع نفسه على مصطبة في مواجهة الماء. صـــفوف طويلة. سكون، تموّج. خليج أورسوند. سكون شديد، تموّج شـــديد. ســـكون، تمـــوّج. خطوة فخطوة. حجر خاو، قليل من زبد حورية البحر على حافة الماء.

حـــلّ الصباح وصفوف طويلة أشدّ إضاءة برزت للأمام بشكل أشـــدّ وضـــوحاً مـــع أشجارها. كانت تبدو هكذا، الأسوَد بمواجهة المـــضيء، مقدمّةً طريقة ما للنسيان، انتقالاً إلى الأبديّة. الأشجار تقوم بإغـــوائه وإرعابه بالتناوب لمجرد وجودها هناك. إنها تشبه سرّاً يمكن أن يفـــكّ لغـــزه أيّ كان، لغز مبتذل وتافه، وليس من غيره قد منع من المـــشاركة في ذلك. الآن أضحت تبدو مثل أشجارٍ عادية تماماً. الآن أضـــحت أشـــجاره الخاصّة. له وحده! صارت مطواعة له مثل هيكلٍ مفترس في حلم. من يعرف ما الذي تفكّر فيه هذه الأشجار؟ ما الذي تـــرغب به؟ سوف تستعيد ذلك الذي فهمه ذات مرّة. ما الذي يحدث بين تلك الغصون السود الجرداء والأفق؟ هل هو شخصيّاً شجرة، شبح شفّاف ينبثق في خلفيّة بازرقاق الجليد؟

نظـــرته تنمو برفقة الأشجار. نظرة كان يخشى فيها أن لا يتمكن من انتزاعها عنها. لعله وقع في غرام الأشجار؟ كلّ شيء منوط بها! لن يغادرها إلى الأبد! أبداً! النجدة! لقد أصبح مجنوناً الآن. فقد عقله! قيق قـــيق. كلّ شيء. أبداً. فقط هذه الأشجار موجودة. أحدهم حفر اسماً على لحاء دماغه. جلده مغطّى بالأوراق. العينان تنغرزان في الأشجار. يحاول أن لا يفكّر بها، أن لا يفقد عقله. لكنه لم يستطع أن يرفع عينيه عـــنها. حـــاول ببطء أن يزحزح نظرته عن أعاليها، لكنه في كلّ مرة ينتهي من عُقدةٍ منها تقوم هياكل الأغصان بتكوين عُقَد جديدة.

ثمّة سفينة حاويات على وشك الاستدارة في حوض البحر. النفير الـــبخاريّ للسفينة يعوي، الصوت يشقّ دماغه ببرود، وانتباهه ينـــزاح بعيداً بما فيه الكفاية ليمكنه من نقل نظرته.

قـــارب سريع يسحب وراءه حزّاً أبيض عبر عتمة الصباح، ومن بعيد تبدو طواحين الهواء عند لينيتن وتستدعي سيارات إسعاف متخيّلة من إحدى المستشفيات على الجانب الآخر الذي تقع فيه السويد. نغمة العويل صارت واضحة تماماً الآن. إنها موجات فوق الصوت تشقّ باطن الأرض عـــبر الـــزمن مـــتّجهة صـــوب المدن التي أسفل المدينة. عبر كوبـــنهاغن. هافنـــيا. كوبمنهافن. بورغ. موضع العبّارة. الميناء. عبر الـــوحل، السِّجّيل والطين الأسود. سجّيلٌ أخضر الرمل. قشرة خضراء الرمل. عبر الصوّان ورمل القشرة المتيبّس إلى الطباشير. عبر قشرة شُعبة بحريّة، تصدّعات وتجاويف. عبر عصر جليديّ، أزمان وعصور سحيقة إلى الحقبة الباليوزيّة. عبر بحر دانيا، بحر شيلانديا إلى القشرة الدنماركيّة. نغمـــة العويل تستجمع نفسها وتصير خيط صوت ينـــزلق خارجاً من دماغـــه، خارجاً عبر الحلزون ومتجهاً نحو المتاهة، حتى يختفي في باطن الأرض وفي داخل حلازين أخرى، قواقع، محارات، أصداف.

الفصل 3

مضى باتجاه البيت في مزاج صباحيّ وشيء من تشوّشٍ ثملٍ. المدينة كونـــسرت ناشـــز من أنغام ذاوية، فناءٌ دائم، موسيقى يتوجّب عليها مـــصاحبة طقوسٍ منسيّة، قطعة موسيقيّة محرَّفة، عرجاء. فوق السقوف كان قمر المدينة يحلّق مثل قطعة قصدير عتيقة، كيف يمكنه الحفاظ على نفسه محلّقاً، و لم لا يسقط فقط على الأرض؟

ســـرْ ثمّ سرْ. إنسَ ثمّ إنسَ. إنها طريقة للتجوال. تمرين على الخلوّ من التفكير. بلا هدف في المدينة الحقيقية، إلى أن لا يكون هنالك معنى للـــسير أبعـــد، إلى أن لا يعرف أيّة مدينة يسير فيها وإذا ما كان عليه مواصـــلة المـــسير أم لا. هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكنه القيام به. لا يفكّـــر، بل يدع نفسه يمضي جائلاً، خارجاً إلى الأطراف، داخل ما لم يـــتخذ شـــكلاً إلى الآن، هـــناك حيث الأشياء تمارس عربدتها. كيس بلاستيكيّ من سوبرماركت يحلّق جائلاً بسبب الريح، وعاء بلاستيكي يُدفـــع مقعقعـــاً فوق حجر الرصيف، بطاقات باص، قفافيز، أعقاب سجائر، أكداس من المعارف الحقيقية، استدعاءات للصدف.

شخصٌ ما تلفّظ باسمه، لكنّه لم يستجب. لديه العديد من الأسماء، إنّـــه سيمفونية تعجّ بالأسماء. إيكاروس. كان ذلك اسماً يستعمله أبوه حيـــنما يعود إلى البيت من جولة طيران. كان الأب يدخل من الباب، ملـــوَّحاً بالشمس، محمّلاً بالهدايا وتفوح منه رائحة غريبة. إيكاروس،

يقول له، وكان صوته حميماً وبلا ازدراء. اسمُ تدليل، هاجسٌ ما. زوج جـــناحين يطير بهما. يبسطهما على وسعيهما محلّقاً بهما فوق المدينة، يتأمّل الرسم الذي شكّلته انطلاقته: إيكاروس Ikaros. في فوضى I kaos.

الفصل 4

كـــيف أمكنه أن يكون غبيّاً إلى هذا الحدّ؟ لا يقرع المرء الجرس بالطـــبع علـــى بابه. ربّما كان ذلك لأنّ ناظر البناية تحامل على نفسه وغيّر مصباح الإضاءة خلف يافطة الأسماء؟ ربما بدا له الاسم جزءاً من الثانية غريباً عليه، فقرع الجرس على باب بيته. هذا أمرٌ يمكن حدوثه. كان يقف أمام الباب ويقرأ عليه اسمه الغريب. كان مخطوطاً بقلم حبر جـــاف علـــى ملصق من النوع الذي يُستعمل على أشرطة الكاسيت، وكان مقصوصاً من أعلى اسم المستأجر السابق. لقد كان هو ذاته من فعل ذلك.

سمّاعـــة هاتف الباب رُفعت، صوت طنين، ثمّ فُتح الباب. المفاتيح مـــا زالـــت في جيبه نائمة. أم أنه كان غارقاً في تفكيره، والترتيب قد استبدل، هل أغلق الباب مغيّباً نفسه ثمّ دخل بعد ذلك مرتاباً؟ على أيّة حال كان بابه الرئيسيّ منفرجاً، وبإمكان أيّ شخص الدخول ببساطة.

كـــان في السوبرماركت لابتياع البيض. المشوار عبر المدينة كان مدهـــشاً. شعر بالكآبة وهو يقطع الشوارع مستشعراً كيس البلاستيك المحمـــل بالبـــيض وهو يقرع ركبتيه. سكب قليلاً من زيت الزيتون في طنجـــرة القلـــي، دعك عود ثقاب وأحسّ بالضغط الناعم للغاز الذي تفجّـــر نحـــو قاع الطنجرة. انتظرَ لحظة. بعدها التقط رزمة البيض من كـــيس البلاستيك، أخرج البيض بحذر من الرزمة، ضربة سريعة على

حافـــة الطنجرة، انكسار، ثمّ صفقَ زلالُ البيضِ الصافي الشفّافُ الزيتَ المـــدخّنَ. تـــشوّهٌ وتنقيب. بعدها حلّ الهدوء على البيض، تصلّب في الشكل الذي ضرب به الطنجرة، استقرّ.

كانـــت البيـــضة عيـــناً تسبح تحت قرنية مضطربة. تغيّر ألوانها، متـــناغمة. الـــبؤبؤ والحدقة تتحولان إلى شمس حائرة في سماء منحرفة ملـــساء. كانت تئزّ حول زلال البيض، يصير بنّياً ويتجعّد. الرائحة تملأ المطبخ، رائحة زيت ساخن وقشّ، وكأنّ ثمّة حيوان هناك. انتهى الآن، قلّـــيَ البيض. بعدها بداية جديدة مع بيضة أخرى، ستّ مرّات تكرّر ذلك.

أوّل مـــا أكل كان محّ البيض الأصفر، بعده البياض، ببطء أكبر، أكثر ريبةً، فوق خبز شعير مع صلصة طماطم. الزلال الأبيض متصلّب وعسير المضغ، لكنّ الألذّ مضغاً هي تلك الأطراف الحلوة للمحّ. البيض يستقرّ هنيئاً في المعدة. ينشر طنيناً موسيقيّاً ذهبيّاً في كيس البطن. لوهلة أبـــصر البيضة لوحدها في الهواء بين القشرة والطنجرة. لجزء من ثانية تجمّـــدت في الهـــواء. هوت بسرعة خاطفة إلى الأسفل ومحّها كان في المقدمة يتبعه الزلال الأبيض مبحراً وراءه مثل مذنّبٍ. ثمّ طرقت البيضة فوق الزيت المغليّ. عينٌ. جهلٌ. رَشَاش.

الفصل 5

انحـــدر علـــى امتداد البحيرات، كان يصغي لوقع خطواته على الحجر المصقول: جرايس، جرو، جاوس، جري. الأصوات تتبعه إلى أن التقى جادّة البحيرات الشمالي بشارع جولدنسلو. تقاطع ضوئيّ. كان يـــتوازن مـــع برج زجاجي. الذكريات تضرب على الجوانب في الممرّ المـــرتفع. عالـــياً كانت السماء صافية. الذاكرة كرة من المطّاط، تنطّ للأمـــام ثمّ تـــرجع، وفي كلّ مرة تضرب فيها القاع تقفز للأعلى من جديد، إلى أن تضرب سقف زجاجٍ غير مرئيّ في قرقعة قاسية.

كـــان ينتظر بين المشاة النافذي الصبر. ضوء إشارة المرور يتغيّر، طلقـــة مسدس في سباق جري، الجميع يتحرّك مندفعاً. الشمس تلتهب عـــبر السماء المغطاة بالغيوم وتنهار صاخبة في النهار. حينما وصل إلى منتـــصف التقاطع لمس رجلٌ كتفه. التقت عيناهما. كانت عينا الرجل قطعتي زجاج فظّ. تأرجح برج الذاكرة العالي مضطرباً. تمايل إيكاروس وكان على وشك السقوط. أمسك الرجل بذراعه وابتسم بحميمية. بدا وكأنّ الحركة ذاتها تكرّرت مليون مرّة.

- المعذرة.

تناهـــى صوت الرجل إلى سمع إيكاروس قادماً من الجهة الأخرى للكون. البرج الزجاجيّ ينهار، يذوب من الأسفل، يسقط بقوّة ويتمدّد على امتداد شارع جولدنسلو، ينهار فوق بافلون البحيرات متهشّماً إلى

نثار هائل من قطرات الزئبق. مشاعرُ غبطة متعاكسة حلّت فيه. اختفى الرجل في الحشود ساحباً أثراً من موسيقى وراءه.

كلّ شيء يمكن أن يكون مختلفاً! إيكاروس يقف في منتصف الشمس، وثمّة مكان لا نهائيّ حوله. العالم ينفتح على مصراعيه، كلّ الأبواب والشبابيك تنفرج، ضغط جانبيّ عنيف. العالم موجود، إنه هناك، وهو يواصل بقاءه جانباً، جانباً، دائماً جانباً.

لعلّ الرجل كان على حقّ؟ ربما من الممكن أن يعاش هكذا، وليس التقدم متعثّراً إلى منتصف الطريق، توازنٌ مستحيل مع برج ذكريات من زجاج؟ شعاع الشمس يئزّ حينما يضرب البيوت والأشجار على امتداد بحيرة سانت جورج. الأشياء تحدث، تقد وتصير مقروءة على صفحتي جمجمة إيكاروس. لا أحد من العابرين يزعجه أو يهتف باسمه غاضباً. إنه حيّ ويسير في كوبنهاغن.

الفصل 6

كوبنهاغن؟ هل يمكن للمرء أن يحمل مدينة في رأسه؟ أفكاره تدور حول خارطة كوبنهاغن التي تجلّت في صورة الأشعة السينية. كيف يمكن للمدينة أن تكون هناك؟ كان يقف أمام متحف المدينة ويتفحّص نموذجاً مصغّراً لكوبنهاغن. لعلّه يتجول هناك في مصغّرٍ، وفي داخل الدماغ يوجد هذا النموذج المطابق؟ وهلمّ جرًّا. في كلّ الاتجاهات. عجّل بسيرك.

كوبنهاغن ليست كوبنهاغن. واصل سيره باتجاه صفحة الماء، والجسر الطويل ينوء تحت كثافة السيارات. رياح شديدة تعصف في دماغه وتنظّفه من كلّ ما حدث. رياح الزمن تعصف بالسيارات بعيداً. في النهاية كان يقف وحيداً في منتصف الجسر ويداه على مسند الجسر. من بعيد كانت المنازل تبدو مغوية.

المدينة والميناء بخليجهما الصغير وحصونهما، بطرقها الرئيسية وضواحيها وأزقتها الخلفيّة، عينٌ محدّقة بعينيه. عين المدينة تقبع متموّجة في الأعماق وتحدّق. من غير الممكن إطباقها، بؤبؤ يبتلع الثلج والمطر، عينٌ من تراب وحجر، من زجاج وحديد، من أسمنت، قرميد، رخام، نحاس. لكنّ القرنيّة أضحت أصلب، وثمّة صفاء حليبيّ يطلع من الأسفل، يجعلها تنكمش، كي يمكن للعين تغيير لونها. ثمّة جزيرة صفراء تتشكّل في منتصف الكتلة البيضاء الغرويّة. تجيش جائلة في مركز محّ البيضة وضواحي الزلال.

المدينة بيضة مسلوقة تحلّق عاليةً في عتمة المساء، إنها تحلّق الآن مع خيط لزجٍ طويل ومضيء عالياً في سماء طنجرة القلي السوداء. ثمّ تمسّها ســكّين عملاقة وتعيدها بخبطة واحدة إلى قواعدها. في نظرة العين ثمّة زحام سيّارات لا نهائيّ فوق الجسر، فيما كان هو يواصل سيره ببسالةٍ في كلا الاتجاهين.

الفصل 7

ذات مرّة كان هنالك ممرّ والى آخره. لكنّه الآن يقف غريباً أمام الـــباب الرئيسيّ. صاعداً السلّم، متوجّها نحو الممرّ. فتح باباً آخر. ثمّة مـــرآة على الجانب الآخر. كان يتمرآى. هذه حالة بسيطة. البؤبؤآن ينقذفان مرتدّين، صدى لمحة. من هذا الذي يبصر يا ترى؟ إلى الداخل بعـــين والى الخـــارج بالعين الأخرى؟ اليسرى؟ اليمنى؟ كمّ من المرات تتجوّلٍ؟

دوارٌ صـــغير خفـــيّ، أليس كذلك؟ إنسَ ذلك إن استطعت. لا تفكّـــر كثيراً به. ستتجاوزه من جديد. لكنّ العين قُنصت في دائرة لا تُخترق. لا يمكن الخروج منها. قفْ! هل يمكنه فعلاً الحديث مع عينه؟ هـــل كانت المرآة هي التي تجيب؟ مرآة ناطقة كما يحدث في الحكايات الخرافية؟ كان ذات مرّة. العين تعكس المرآة. العين ممرٌّ ذو مرآة تقترب فيه من نفسها عبر قاع مرآة أخرى.

هـــل يبعد نفسه أم يدنيها؟ الذكريات تنبسط أمامه مثل كتب في مكتـــبة. في أفكاره يمكنه تناول أيّ جزء يريده من الرفوف. لكنه ليس بحاجة لقراءة الكتب. إنه يعرف ما هو مسطور فيها، يعرف كلّ فارزة، كلّ موضع حرف.

المكتـــبة موجـــودة في شـــقّته، والأشياء تعيش حياها، تكتشف علاقات جديدة، الذكريات تتناكح. كلّ شيء يتعدّد ويربط نفسه إلى

عشرات الآلاف من انطباع الذكريات الحادّة. إنه موجود فقط بصورة اعتباطيّة بليدة، تضاعف من نفسها بلا انقطاع.

يحـــاول أن لا يفكّـــر بها، يحاول أن لا يفكّر. صار من الصعب الاســـتغراق في الـــنوم، وتحت رحمة كوابيس اليقظة هذه شرع في عدّ الأرقـــام الأوّلية، وفي كلّ عدد أوّلي ربط إحدى الذكريات، فالأعداد الأوّلية ليست مثله، إنها غير قابلة للتجزّؤ.

الفصل 8

شـــارع نوربغـــو. سرْ ثمّ سرْ. شارع سيمولتان. الشوارع تعقد نفـــسها ببعض. جادّة الميناء. الخطوات انـــزياحات دافئة تتسرب عبر الأقدام إلى بقية الجسد. شارع ياجتفاي. عند تريانجلن جلس على دكّة ليستـــشعر ثانية تدفّق الزمن الأفقيّ الرائع عبره. انساب هذه المرة من الخلف مثل موجة فخورة ترتفع، تصارع وتتدحرج خارجاً نحو الزوال.

نهـــض وواصل مسيره نحو جادّة أوستربغو باتجاه البحيرات، الساقان تسيران من تلقاء ذاهما. غمره شعور يشابه النسيان. الناس يعبرون حشوداً في ثبات وينـــزلقون صاخبين. جاء بعضهم متأبطاً شيئاً أزرق. فاحت من الـــصيدلية رائحـــة كافور قويّة وارتطمت به. في محلّ لغسل الملابس أبصر المـــنظّف منتصباً ينظّف خزانات الصابون بعود ثقاب. عربة إسعاف تمرق مجـــتازة بسرعة شديدة. نُتَفٌ من أحاديث، بكاء، موسيقى، أبواب توصَد، أخرى تنفرج. المدينة نظام إحداثيّ من الأحاسيس التي تتطابق مع الخريطة الـــتي في عقلـــه. جادّة أوسترفاريم تبدو كأنها قطعة قماش بالغة الرقّة على الجلـــد. الـــسماء فوق شارع جودهوب تفوح برائحة ويسكي إيرلندي. جادّة ياجرسبرو رقصةٌ فوضويّةٌ بين المصادفة والفكرة.

أخـــيراً. الأفكـــار استنفذت، وهو يتحرك دائراً في إغفاء لذيذ. شـــارع نوردرا فاسان. لا شيء. شارع الجمجمة المشروخة. لا شيء. أصوات الباصات، هواتف الأبواب، أطفال الروضات المتفسّحون. إنه

يسير إلى أن لا يعرف أين هو، أو أين يسكن.

لكــن مَــن عاد يعرف ذلك؟ يحاول أن يعثر على نظام للأشياء لكــنها تراصفت على بعضها حتى أضحت جداراً ضبابيّاً يصطدم به. لقــد دخل في دربٍ أعمى. ثمّة رائحة بول وقمامة متعفّنة، واقٍ ذكريٌّ مُلقــى فوق درّاجة امرأة. شيءٌ ما كان منهمكاً في تكرار نفسه. كلمةٌ تعــود إلى مكانهــا، فهمٌ مبسَّط، ريشةُ الأبديّة. كان دائماً ينفخ على الكلمة، وكانت تواصل تحليقها.

بعدها تلاشت المشاعر، والمستحيل يجتاح. على أيّ طريق سيسير؟ الأشياء تتغلغل فيه. الأشياء تتشبّث بأفكاره، تغلق الطريق.

- أين أنا؟

- على كلّ الدروب!

استعاد نفسه في حقل سوندر واستيقظ على إحساسٍ بالوطءِ فوق شــيءٍ حيّ. تطلّع إلى الأسفل. ليس سوى حصباء وحجر. مرّ زوجان عجــوزان يجرّهما كلبٌ ألمانيّ صغير، مرق عدّاءان يتراكضان قريباً منه. شعاع الشمس يسقط في حفرة لا قعر لها. عربة أطفال، أوزّ، أصواتٌ مزقزقة. الأشجار تنتصب هادئة باتجاه السماء الزرقاء، متشبّثة بأشكالها. ثمّــة سنجاب يقبع في المرجة ذات الاخضرار الصدئ. من بعيد يتراءى صديق يلوّح.

ثمّــة شــجرة زان واقفة. كانت تقطر من قمّتها الكثيفة. صخب منبثق من العدم. نعم! الأشجار على حقّ. لكن لم يكن بإمكانه سوى مواصــلة السير. أحاسيسه تضطرب مثل ثياب مهلهلة، أياد محمومة في مطاردة لكلّ شيء باستثناء الذكريات.

مــا هــو الإنسان يا ترى؟ مخلوقٌ بدماغ وذاكرة لها القدرة على نــسيان الفوارق والتفاصيل وبذلك تكرسّ نفسها للتجريد. لقد فصل

نفســه عن ذلك. العالم تفاصيل، أشياء، وأشياء مرّة أخرى توسع من نفسها بلا حدود وعلى جميع الجهات.

لكـــن مـــا زال بإمكانـــه تحريك نفسه في الأزمان الحيّة. عصف خارجاً. سارع بخطى عسكرية صاعداً نحو جادّة سمالا، منحدراً باتجاه شـــارع جاملكونغ، مواصلاً، ومواصلاً، على إيقاع نفسه، في ركضٍ، مواصـــلاً، جـــادّة تورسنس، مواصلاً، فيستر فولد، أسرِعْ، ستغروت. جـــادّة المـــشي نعم، أخيراً، انجرفَ في لجّتها، اضمحلَّ في غابة البشر الناعمة. سائراً. سائراً في غمرة الحياة.

انتـــبه فجـــأة للعديـــد من العيون التي تحدّق نحوه، وكان الناس يـــضحكون. ضـــحك هو أيضاً، الناس يبتسمون، والأطفال يؤشرون بأصـــابعهم. عندها نظر من فوق كتفه إلى الوراء فلمح مهرّجاً ضامراً اســـتدار بعجالـــة وتظاهر أنّه يقلّد مشيةً لشخص آخر. بعد قليل جمع الرجل نقوداً في قبّعة بيسبول كبيرة.

مصطبة من جديد. المصاطب موجودة. إنها تحافظ على الأشياء في أماكـــنها. نـــساء يتبخترن عابرات بكعوب عالية ذات قعقعات جمـــيلة منغَّمة، سلسلة إيقاعات من طراز مثابر. المؤخرات تتلوّى، معجزة السير المحتفية. الشمس تشرق في دواخله، فلكلّ شيء سطح تقع علـــيه الـــشمس. كـــان يجلـــس تحت الشمس على ضفاف بحيرات كوبـــنهاغن. الوقت كان عصراً، وكانت كوبنهاغن حيواناً يهزّ رأسه. وحيد قرن.

وجد نفسه في حالة لا يمكن أن تسمّى بشريّة. ما من فكرة تجول في رأســـه. هو الآن ليس بأكثر تعقيداً من هذه المصطبة الخضراء العامّة الـــتي يجلس عليها أمام نـــزيف دماغ البحيرات. ترك لذاته أن تُبتلع في أعمـــاق فـــراغها الساكن. لكن في مكان خارج وعيه تجيش ذكريات

غاضبة، فغمره رعبٌ مستبدٌّ بأن ظلال الجدران ستتقوّض. أنّ أحجار الرصيف ستتشظّى مثل زجاج حالما يطأها، أنّ حجر الممشى جمرةٌ هاويةٌ إلى خارج الجحيم.

الزمن يسوقه إلى أمام مثل قطيع ماشية. الناس تتقدّم باتجاهه، يجتازونه عابرين، يختفون وراء ظهره. الأطفال يطعمون البطّ برفقة أهاليهم، بطٌّ ينبثق في لمحة خاطفة ناقراً الفُتات. سمكة تتلألأ تحت سطح الماء. الرعب يحدّق شزراً. في كلّ لحظة يمكن لقبرٍ أن ينفتح تحته على الطريق حيث يمكن للمرء أن يقول له مؤنّباً:

- اسمعْ يا مَن هناك، إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟

- إلى لا مكان!

- أوه، أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟...

سائحان يابانيان قدما سائرين. توقّفا أمام المسند وظهرهما متجهاً إلى القبّة الفلكيّة.

- هل يمكنك أن تلتقط لنا صورةً؟ نعم؟

شارداً أمسك بالكاميرا الصغيرة ومن خلال العدسة بدا الزوجان الملحّان يبتسمان له وكأنّهما من أفراد عائلته.

- شكراً لكَ، هذا لطف منك، لطف كبير.

بعد ذلك شرع الرجل بالتقاط صور للمرأة. جلست على المسند، ابتسمت، استدارت على نفسها، والرجل يصوّرها من الأمام والخلف. كانت تستعرض نفسها أمامه فيما كان راكعاً على ركبتيه ويضغط على زرّ الكاميرا، اتخذا وضعية الخطّاف.

ثمّة صوت يهمس.

- حاذرْ يا إيكاروس، ستكون ضمن الصورة.

لكــــنّ الوقت قد فات. كان يجلس على مصطبة، شبح على يسار الـــصورة قلـــيلاً، بين الأشجار. إنه موجود الآن في سالب الفيلم، في طريقه من الآن لدخول ألبوم للصور في اليابان.

.Konica .Pentax

كـــم مـــن المرّات قد تناسل؟ كم مرّة أصطيد في مسرح الشارع الدراماتيكيّ، في الضواحي، في طريقه إلى الدكّان؟ في تلك اللحظة كان يـــبدو كإنسان. إنسان؟ حاذرْ، كاميرا كانون تقبض روحك. كم من المـــرّات حُـــشرتَ في ألبوم صور مع أناس آخرين يبدون سعداء؟ مثل حافز، مثل جسم، يعرض بشكل صحيح، Kodak، Fuji، ألوانٌ قويّة واضحة من حلم أثيم. تعميد، تثبيت. مع وبدون كلب. كريت. البحر المتوسط. جنازة.

.Minolta .Nikon مبتـــسماً في مطعم رخيص مليء بالسيّاح. أطفـــال يتموضعون أمام فلاش مؤقّت، مكعّبات فسفور مطقطِقة ذائبة تتدحرج من يدٍ كبيرة. Polaroid .Instamatic. دمغةٌ مطبوعة تحمل ســـالبها معها. الحوافز تنمو من قاع الكارتون، والرعب يقترب أكثر مثل حافلة مضبّبة في مكان ما خلف المشهد.

الفصل 9

أحدهم ينخسه في كتفه ويهمس:

- الحياة انبعثت من بحيرة سورتدام.

استدار على نفسه، لكن لم يكن هنالك من أحد. لم يعرف من أين وصلته تلك المعلومة. لكن لا شكّ فيها. ها هنا بالضبط، قبل أربعة مليارات عام، في إحدى بُركات الحمم التي لم تكن تسمّى آنذاك بحيرة سورتدام، عندما كانت الحدود اللامرئية بين الجماد والحياة قد تخطّيت، عملية كونيّة طويلة الأمد مختزلة في عطسة عضويّة. حساءٌ سحيق مطبوخ في حامض أمينيّ، ماء، هيدروجين، نشادر، ميثان، مشكّلاً حياةً عفويّة. تركيب الكاربون بدأ بهضم الغذاء من الشمس، وثاني أوكسيد الكاربون استعاد تأثيره على محيطه.

في عمق بحيرة سورتدام تجزّأت الخليّة السحيقة لأوّل مرّة، انشطرت إلى اثنين، أربع، ثمان، ستّ عشرة، في البدء في تحدٍّ متراكم، بعدها بقوّة إرادة متصاعدة، إيقاع فوّار، حركة اعتباطيّة تطوّرت مع مرور الوقت إلى قوانين وعادات. أنظمة متولّدة من الفوضى. الحمض النووي. الحمض الريبيّ. بروتين. بيضة. دجاجة. بيضة، دجاجة، بيضة، دجاجة...

ميكروبات المعادن، ماء حيّ، بكتريا، حلازين، لا فَقريّات، الزمن يتوسّع إلى نسيج رئويّ، مواد القمامة تُفصل وهضم من مخلوقات

جديـــدة. ضـــرورات كيماويّة معقّدة تُضبط من خلال عملية الأيض والتمـــثّل الضوئيّ. ثاني أوكسيد الكاربون يتشكّل في الهواء من خلايا النـــباتات بتأثير ضوء الشمس. الكربوهيدرات، السكّر، الأوكسجين يُهـــضم ويـــستخدم من قبل العضويّات، في أنظمة على درجات أعلى وأعلـــى مـــن التنظـــيم. إنها تعيد إنتاج المواد، تتنفّس وتتنفّس، تسبح وتـــسبح، تدبّ على الأرض، تسير، تترك آثار أقدامها، على الأرض، علـــى القمر، ترسّبات، متحجّرات، قشريّات، عظام، ثمّة آثار حياة في طبقات القشور ومسابير الفضاء الجوّالة.

بـــدأت في أمـــاكن عديدة بوقت واحد، إنها تتفجّر، في سلسلة متـــصلة واحدة، لوالب، خيوط، فوق الصخور الشمسيّة، في الكهوف والجحـــور، في كبريت الحمم، في ينابيع ساخنة تحت سطح الأرض، في الأعماق، البحيرات، المحاريب، التجاويف المضغوطة. لقد بدأت فقط، في عتمة الحمم، دبّت خارجة من حجر، لا يمكنها أن تكفّ عن ذلك، إنهـــا تنقذف إلى أمام، من دون رأس، بشكل ميكانيكيّ، تجمّع نفسها في تـــركيب أشدّ تعقيداً. تطوّر نفسها، وتحيي نفسها، وهذا يحدث لأنّ ليس لها أن تفعل غيره، إنّه نمط من الضجر، لعبة نسيان، الكون يلعب مـــع نفسه، لأنّه في تلك المرّة كان من الممكن لعب تلك اللعبة، حيث اللاعب يصير حيّاً ويبدأ بالموت.

ثمّـــة امـــرأة تدفـــع بعربة أطفال إلى أمام فوق الممشى. في داخل صـــندوق العـــربة يرقد الطفل بعينين مغلقتين، وجهٌ في استرخاء، وجهٌ يمكـــنه الـــتحوّل في كـــلّ لحظة إلى صرخة. كانت تفتّش في قلقٍ عن المـــصاصة وحفّاظات البلاستيك. كانت عاشقة لصورة نفسها، لتلك الـــوحدة الـــتي يشكّلها الاثنان. أكملا دائرة، هي وطفلها المحمول في العربة. أمٌّ وطفل، نموذج مثاليّ للجنون، للحياة الجميلة.

مـــدّت أصـــابعها الرشـــيقة باتجاه نسلها الأعزل. جلست فوق مصطبة. وضعت الطفل على صدرها فجالت صورة الحليب في أحلامه الخالـــية مـــن التجسيم. رأت نفسها تهدهد العربة جيئة وذهاباً باتجاه الأبواب المشرعة، باتجاه مراكز التسوّق ومقابر الكنائس. ولأنّها تجلس تحت ضوء الصباح بدت مثل روح لا تتحرّك، ضائعة في الحيويّة المرتبطة بالحـــياة أو المـــوت، كمـــا هي عليه الآن. حامض الشمس يقطر بين صفوف المباني الكثيفة.

الفصل 10

كـــلّ شيء يسير وفق ما هو مخطّط له تماماً، عشوائيّاً. كلّ خطوة يخطـــوها تقوده إلى أعماق الذاكرة. محيطه هذا الذي يتحاشد حوله أم أنه هو الذي يتحاشد فيه؟ لا قدرة لديه على إدراك ما يحدث. ماذا أراد حجـــر الطاق منه. الصور تواصل صعودها إلى سطح الوعي في طابور طويل، فقاعات بوضوح الفضّة، سلسلة مشاهد مضاءة، حياة مشحونة كهربائيّاً، لا تريد أن تقيّد نفسها ولا أن تقدّم معنى ما.

– لكـــنّك قـــد شفيت. الشرخ سيلتئم مع بعضه. أنتَ محظوظ. سيكون الأمر على ما يرام. تحتاج فقط أن تأخذ الأمور بهدوء. لا ترهق نفسك.

– لا أستطيع النسيان.

الطبيبة تعاينه. عيناها المتعبتان تحاولان أن تقولا أن هنالك من هو أسوأ حالاً منه.

– لا يمكنك النسيان؟ ثمّة حالات روسيّة وأرجنتينية مشابهة. لكن ما يحدث لك ليس خطيراً. ستنتهي المشكلة من تلقاء ذاتها.

– لا أريد سوى أن أعود طبيعيّاً من جديد.

هزّت كتفيها بيأس.

– يمكننا إرسالك إلى طبيب اختصاصيّ.

قدّمت له عنوان المراجعة.

ها هناك يقف هو، مع كتاب المراجعة في يده، على جسر الملكة لويزة. الشمس تسطع على المدينة. هناك على واجهة أحد المنازل تبيضُ دجاجـــةٌ من نيون بيضها، وفي كلّ مرة تنتهي فيها من وضع بيضة تبدأ من جديد.

بيضة. دجاجة. بيضة. دجاجة. بيضة. دجاجة.

بيـــضة النيون الجديدة تسقط في طنجرة بحيرة سورتدام بالضبط. الشمس تشتعل وسط زلال البيض. أمامه شظية زجاجة مسخّمة ملقاة. إنهـــا تـــصبغ الأصابع مثل جناح يراعة الليل. ملساء وباردة. بالتأكيد أمـــسك بها في يده من قبل. ذات مكان ما في الزمن قدّمَ له جدّه شظيّة زجاج. تناولها منه ورفعها عالياً صوب الشمس.

الفصل 11

انحــدرا صــوب الــساحل ليشاهدا كسوف الشمس. كانت الــسيارات باركة على امتداد الممشى في صف طويل، سيارات زرق، رماديـــة، وصـــفر على شكل حلقة من ذات الصنف والحجم. نصب الــناس طــاولات التخيـــيم على حافة الطريق، حيث كانوا يجلسون يحتسون القهوة من ترمس ورديّ.

– هل يمكنك يا إيكاروس ملاحظة أن للبحر لوناً جديداً في كلّ يوم؟

أغلب شاربـــي القهوة يرتدون نظارات شمسيّة مربعة. يكن للمرء سمـــاع همهمة منتشرة للأصوات من الطريق. عناقيد الناس تضمحلّ من تلقاء نفسها ثمّ تعود لتتجمّع من جديد في أماكن أخرى. كان الساحل بلـــون كتّان المذبح. النوارس تتهاوى على قارب بخاريّ برتقاليّ اللون. الــناس يقفـــون بكـــثافة الآن، متحيّرين، النساء يتكئن على الرجال. الأطفـــال يتراكـــضون حول الدعامة، والناس يقفون منتصبين حاملين مناظيرهم المقرّبة والكاميرات.

ثمّ حـــدث الأمر فوق، بالضبط عند تلك النقطة المحدّدة، حدث تقـــريباً مثل خيبة، الأجرام السماويّة غطّت بعضها بدقّة مرعبة وبقوّة، انـــزلق القمر أمامَ الشمس، والوهج الشمسيّ أضحى واضحاً. حلّت العـــتمة، كـــبريتيّة وبلـــون الكروميوم. تسرّبت من العيون داخلة إلى

الـــدماغ، حيث حلّ الهدوء هناك. ظلّ الناس واقفين لا يتحرّكون على الـــشاطئ، فيما كان القمر يواصل انـــزلاقه وضوء الشمس يعود من جديد، مجهداً تقريباً.

ثمّ حـــدث أمـــرٌ غريب. جدّه صار شفّافاً، والصورة لم تعد كما ينبغي أن تكون. خلف الساحل والدعامة والشارع ذي السيّارات يتّقد مـــصباح شديد السطوع من خلال شريط الفيلم، وثمّة رائحة بلاستيك يحتـــرق. هنا ظهرت تصدّعات وخدوش على المشهد، الشمس والقمر كانا بالسالب، والسالب لم يكن بالإمكان فصله عن الموجب. الشمس تـــتّقد عبر زجاج السيارات والترامس، تذيب طاولات التخييم. كانت تـــتّقد عـــبر النظارات المربّعة، شظايا الزجاج، قرنيّات العيون، وترسل ضـــوءاً لامعـــاً إلى داخل الأدمغة، كلّ شيء كان يذوب مع صورته، وفجأة أضحى الساحل خاوياً، والبحر على وشك تبديل لونه.

الفصل 12

حـــركة السير والمدينة تستجمعان نفسيهما في كرةٍ أمامه. كان بإمكانـــه رؤية وجهه مرسوماً على سطح الكرة. ذاهلاً يدخل صالون شرب القهوة عند مركز استئجار القوارب. الناس يقرأون الصحف أو يحدّقـــون بخـــواءٍ في الهواء. رائحة جبن نفّاذة تفوح في المكان الملوّث بـــرائحة بـــدخانٍ السجائر والصلصة البنّية. صلصة ملونة. تلك المادة الغـــريبة السوداء التي تمنح كلّ شيء صبغة قهوائيّة. صلصة! زجاجات بنّـــية يقطـــع المرء حافاتها في البدء فتنبعث بعدها مادة العصير اللزجة بكثافة كبيرة.

داخـــل المطـــبخ تخشخش الطناجر ونشرة أخبار اليوم في الراديو معلـــنة مقتل 28 إرهابياً كولمبياً. طلب لنفسه بيضاً مقليّاً وشريحة لحم خنـــزيـــر. الـــتهم البيض المقلي أولاً، وشريحة اللحم تالياً. خبز شعير وصلصة طماطة. شريحة خنـــزير دنماركية. سلسلة لا نهائية من أجساد الخنازير تنـــزلق باتجاه نقش معدنيّ. فرّوجٌ يتدلّى في قطعة صوف محاكة حمراء معلناً عن شراب عيد الفصح. جورب. دجاجة. بيضة. إنّه خيطٌ صـــوفيّ أحمـــر في كنـــزةٍ في طريقها للانحلال. ليس ثمّة مُعارِض، فقط سلسلة أنشوطات تنحلّ من تلقاء ذاتها. إنه ينحَلّ. يرفع نفسه في الخيط فلـــيس بإمكانه التوقّف السحب. إنّه خيط أحمر مسحوب للأعلى من بكرات دوّارة في مكان ما داخل المتاهة. خروج.

الفصل 13

رجـــوع للجادّة تحت الشمس الحادّة حيث كان يقف في الميدان ويطلـــي دهـــان حشد عيون ساخن على وجهه. وَبْصَة بَصَريّة. ضغط بأصـــابعه علـــى جفنـــيه وفتح عينه تحت الأجفان وتفحّص الأشكال الـــبرتقاليّة في الداخل. موقد فسفوريّ وكرات معدن ترتدّ منقذفة في ضـــياء رياضيّ ساطع. يفتح عينيه، وفيما كانت العينان تتعودان على الضوء كان العالمان يمتزجان ويصبحان عالماً واحداً لا غير.

في منتصف الميدان ثمّة ميكروسكوب. رفعه عالياً. إنّه صغير ومن معدن مطليّ بالأسود. أمسك بالميكروسوب في يديه مثلما يمسك بطائر أصابه الأذى، ويحمله معه برفق إلى البيت.

في الـــبدء لم يمكـــنه رؤية أيّ شيء. ليس سوى لا شيء كبير في الميكروســـكوب حـــيث كان فضوله يتمرأى. كانت العدسة الصغيرة يمكـــن تدويرها، وعلى المرء إيجاد الزاوية الدقيقة. على العين أن تعتاد علـــى الضوء. فالشمس هي التي تنير المرآة الصغيرة في الأسفل. هكذا كما ينبغي أن يكون.

ثُـــبّت على الميكروسكوب ماسكان معدنيان لزجاجة العيّنة. هنا يمكـــن للمرء أن يضع ما يشاء. هنا تجلّى العالم للنظر أوّل مرّة، أجساد ذبـــاب، عـــيون نحلٍ، شبكة شفافة من سوائل متلألئة باردة، شوكات علـــى أجنحة، حبيبيّات ملوّنة لأجنحة الفراش، غبار طائر، كريستال

شمسيّ. العالم له شَعرٌ أملس ومعدنيّ، جيوب خارجيّة، غشاء زجاجيّ، علبة مجوهرات لامعة لازورديّة، بحرٌ من القرنيّات.

الدم على سبيل المثال كان مثلّثاً، خلايا الدم الحمر والبيض والصُّفَيحة الدمويّة تتيبّس إلى مربّعات ومشابك متفتّتة. لا يحتاج المرء سوى لخدش صغير بسكين المطبخ لينبثق خارجاً ما هو موجود هناك. لكنّ الخدش صار عميقاً وفي المكان الخطأ. اليد تدلّت بشكل غريب فتدفّق الدم في زخّات كثيفة دوَّمت حول معصم اليد.

الدم أيضاً كان نقاطاً سود أمام العينين، انساب على طاولة الطعام، تدفّق، واصل جريانه، لون أحمر مدهش. ثمّة مادة انتشرت في كلّ الجهات، دوارٌ لزج وحشرات على حافة حقل النظر. لكنه سيتوقف بالتأكيد، الأحمر المدوّخ الذي يمتلئ به القلب اختفى الآن تماماً، الآن جاء ماشياً، ماشياً، خطوة خطوة عبر الممرّ، الآن يفتح باب المطبخ، وبصوت منفعلٍ يصيح:

- ما هذا الذي فعلت؟

أزاح الميكروسكوب عنه ووضعه على الرفّ بين مجسّم الكرة الأرضية والموسوعة ذات الثلاثة والعشرين جزءاً، والتي لم تكن هناك هذا الصباح. صرف النظر عن متابعة تجلّيات الدماغ. ما الذي سوف يحدث حينما لا تعود الشقّة تتسع لأشياء أكثر؟ لديه العديد من الذكريات، أكثر مما يسعها مكان. إذا واصلت الأشياء تجلّيها بهذا الشكل فعليه أن يجد مكاناً آخر للسكنى.

توقّف عن تصنيف الذكريات وفقاً للأرقام الأولية، فما زال العديد منها يحشر نفسه بين من نُظِّمت من قبل. كلّ جسم كما يبدو يتفرّع أجساماً جديدة. بمرور الوقت تنشأ مشكلة من مجرد محاولة فسح ممرّ بين السرير والباب. صار من الصعب الاستغراق في النوم. قريباً

سيكون عليه أن يتخيّل نفسه وقد هشمت جمجمته كتلة كبيرة سوداء، قريباً سيتأمّله أحد الملائكة حينما يكون نائماً، قريباً ستكون كلمات في رســـالة محتـــرقة، رسم بلا مضمون، غابة مضبّبة، بيدق شطرنج، قنّينة تجفيف في قمامة يجرفها ماء المطر.

الأشـــياء هـــي منقذه الوحيد. توصل بينه وبين العالم الذي يربط أفكاره بالواقع. الأشياء تمور جياشة في ركام الروث في ذاكرته، لتصير بعد ذلك فقاعات تنتفخ لامعة تحت ضوء الشمس الناصع.

الفصل 14

خلــف حديقة الجد يرتفع ركام الروث. في أعماق دغل المستنقع ثمّة سخونة تنبسط على امتداد درب الحلازين. جزيئات سكّر وحبّات قمـح أخـضر، أجـزاء النباتات أضحت مهشمة بسبب المتعضّيات الميكروسكوبية وديدان الأرض. كان الركام مثل حيوان ثقيل يكرع من الماء المشبّع بالأسيد.

كانت الحديقة بركام روثها حيّزُهُ الخاصّ، مكان للحركة، وصار هو الجسم الإسفنجيّ المشوِّش ذا الجذور الهوائيّة والفطريّة التي تجرّ نسيج شـبكة العنكـبوت عـبر الأرض. قُطْـبُ الأفكار ينغرز بقوّة في الأهـداب، والأفكار تطير من دماغ إلى دماغ ملقّحة إيّاه. قام ببعث بـذور ميتة إلى الحياة في الأرض، فتح إرادتها النائمة وتصفّح فهارسها شبه الغارقة، شبه المتحلّلة، غطس في أعماق المكتبات المنتظرِة لتراكيب النباتات.

بـثّ في البذور طاقة النموّ، دهنها بزيت موتورات المكائن، شقَّ الحيّ منها، أسالَ دمها، انتظر ودفعها إلى أمام. إنها تغني في دواخله. إنها تنكـبس، تتدافع، تتحوّل. جذور، وريقات، قرّاص، ساق شجرة يبرز إلى الأرض، يعلك الجزيئات، يبدّل أشكالها، يمضغها، يحلّلها إلى روابط كيميائـيّة جديدة، أبسط وأكثر واقعيّة. أعاد وضع كلّ شيء في مكانه في الأرض.

كان يلعب بين الأشجار الضخمة، يخبّئ نفسه تحت سياج الجوز، حيث رائحة التراب والأوراق المتفسّخة، وعند الخريف يكون سطح الأرض مليئاً بالجوز الذي يتمّ جمعه في دلاء ويوضع في السرداب السفلي. كلّ صباح يتكوّن ضباب كثيف بارد بين الأشجار الكبيرة. ثمّة مزولة شمسيّة تنتصب فوق المرجة. كانت هنالك أشجار تفّاح وأكمات ورد. شجيرة الورديّة. الحديقة تمثّل صدىً للهدوء في البيت. مرّةً في كلّ عام يأتي الحدائقيّ ويحاول ببطولة أن يكافح أسوأ الأيكات والأعشاب الضارّة. وإلاّ فأنّها ستعتني بنفسها ذاتيّاً وتنمو من جديد.

النماء يتصاعد عالياً، توّاقاً للأوكسجين والضياء. عالياً من دون عراقيل. السيقان والغصون تفتّش عن الحلّ الرياضيّ الأبسط للمشاكل الواقعيّة الشائعة، المعادلات تواصل تفتّحها في حلول جديدة، حيرة جديدة، أفكار نباتيّة جديدة. الناس تبعوا ذلك لبرهة، والنباتات سمحت لهم أن يقصقصوها، يسمّدونها ويعيدون تأصيصها. لكنها استمرّت بعد ذلك باطّراد في إيقاع عنيف دبق، مستنقع من اللاجدوى يتشكّل ويعاد تشكيله من دون توقّف. لم يكن بالمستطاع إيقافها، ولا حتى الإمساك بزمامها. الحياة تنمو عالياً، تخنق حياة، وتمنح القوّة لأخرى.

كانت الحديقة ما وراء كلمة "إنسان"، ما وراء كلمة "إرادة". كانت عتمة في اللاشعور لا اسم لها، حيث الحيوانات تدبّ، وكلّ صباح يكون نسيجاً من غناء الطيور. ألف منقار ينفتح مثل صدعٍ في الأرض، وكان هو يرغب بإلقاء نفسه في خضمِّ شبكة الأصوات هذه، واثقاً من أنّ الحناجر العديدة ستحمله.

الفصل 15

مفعمـــاً بخفّة فقاعيّة خاصّة واصل مسيره، والجادّات تختفي وراءه في ســـرعة غاضبة. المدينة قطعةُ موسيقى يدوّنها بخطواته. كان يتحرك فـــوق الهاويـــة دون أن يحـــدّق للأسفل، يسير فقط، فيما يرن صدى خطواته في الهواء.

بـــين وهلـــة وأخـــرى يقـــوم بالتقاط الأشياء وحملها معه إلى الأخـــريات، أو الأشـــياء الـــتي بقيت مبعثرة في شقته، بإلحاح، فوق الأرضية وعلى الطاولات، في الخزانات والأدراج، وعلى حافة الشبّاك. ثمّـــة مسامير منثورة في الميدان. مسامير لا حصر لها. بلاهة مخشخشة، ضجيج يتابعه. مسامير معوجّة، صدئة، لامعة، مكهربة. كلّ مسمار هو نقطة يدور حولها العالم. تتكاتف مع بعضها. إنها الممكن.

تقلـــق الحـــروفُ تقلق راحة العالم كذلك. ملصقات، لافتات، لوحات أسماء، إعلانات الباصات، أغلبها يكون كتابة إذا تفحصها المرء عـــن قرب. تذاكر، إيصالات، مجلات، صحف. عيناه تنـــزلقان بجشع فـــوق مجلة أسبوعية، إعلانات تخفيض، رسائل ممزقة. على كلّ الجهات تنبت الكلمات من سطوح خاوية. جُمَلٌ أو نُتَفٌ من جُمَلٍ، كلمات، أو نـــتف من كلمات، حروف، رسوم. كان يمنحها معنى. قبل التفكير بقـــراءة الحـــروف تكون الحروف مقروءة، مثلما حين يصغي المرء ولا يمكـــنه الكفّ عن ذلك. كان يجمع الحروف بعينيه ويغرزها عميقاً في

الذاكــــرة. إنها مُلكه الآن، بإمكانه الإحساس بشكل كلّ مفردة منها، بطعمها ووزنها.

كـــان يقـــرأ نفسه عبر شوارع المدينة. مكتشف أشياء، قاطف كلمات، شبه مجنون. كان يجمع كلّ ما هو عادي. الأشياء إحداثيات صـــاخبة تجعـــل مـــن الممكن للمرء أن يتحرّك في العالم. إنها أماكن للاستدلال، لأنّ ثمّة بوصلات ميكروسكوبية في داخل كلّ شيء. ينبغي علـــيه أن يكون حذراً كي لا يتجاوز عليها، عليه أن يتحرك بطيئاً عبر المدينة مع نظرته المقعقعة. كلّ شيء هو محاولة للتواصل.

أمام المتحف الجيولوجي ينتصب نيزك معدنيّ، شظيّة من كبسولة ناجية أُرسلت من مجرّة نائية، أملٌ أخير للنجدة. الموتى كذلك في مقبرة أسيستن يحاولون إرسال الإشارات بألسنة النباتات الخضر خارج السور البرتقاليّ.

دفع الغطاء المعدني وسار إلى الداخل. في ظلال الأشجار دائمة الخضرة ينمو الزمن، يعلو تحت السدر الأبيض والشجيرات الكثيفة، يبتـــسم من خلف عقدين عابرين من الزمن حُفِرا في حجر الصوان أو البرونـــــز. تحـــت سطح الأرض يرقد الموتى. أكثر أشياء العالم عادية.

يـــرقد الناس مدفونين هنا، أين توجد ذاكرهم الآن يا ترى؟ كان يقـــرأ في موســـوعتهم الحرّة، لكن لا شيء يمكن أن يوجد على هذه الـــشاكلة. مـــا الذي يحدث داخل الشجرة الدائمة الخضرة؟ هذه الـــسعادة الـــرهيبة التي تتجاوز الحيّ؟ خطٌّ سيرٍ يجيء ويذهب، تبادلٌ عضويٌّ سرّي. اضطجعَ على العشب. دغدغت الأعشاب خدّيه. فتاة ذات صـــوت جميل تجتازه سائرة عبر الممشى. مسّدت شعرها. ضيّقت من كنـــزها.

الأمر بسيط. الأجساد تحت الأرض في تحلّل، الجسيمات والذرّات تعثـــر علـــى وعـــيٍ آخـــر، أسماء جديدة. من حوله يحاول الموتى أن يتواصلوا، يدسّون أصابعهم إلى خارج التراب، يفتحون أفواههم المليئة بالتـــراب، يحاولون أن يحفروا أسماءهم المدوّمة فوق حجر فرن إحراق الموتى من الداخل، يتطايرون مع الدخان.

الفصل 16

كان فكرةً محلّقةً في سرب زرازير، غيمة بلا ذاكرة. فعلَ المنـــزل مـــا بوســـعه لعرقلة الحركة، وكما هو الحال مع أمثال هذه الأبنية فقد صار مع مرور الزمن ثقيلاً حتى أنّه شرع ينتكس. ذات يوم، حينما مرّ بطريق الصدفة، بعد سنين عديدة، مجتازاً المكان الذي يقع فيه، كان كلّ شيء قد اختفى عن وجه الأرض.

أغلب المنازل الأخرى في الحيّ كانت تشابه بعضها، بيوت ذات طيف لونيّ يختلف تدرجاته قليلاً، من الأصفر إلى الرماديّ، وكلاب من مخـــتلف الأعراق، أشياء من زجاج، أصابع أحمر شفاه وممتلكات ذات تـــأمين معقول. الشوارع والأزقة ممتدّة بانسجام، أرضية مرصوفة ذات أنابـــيب تصريف وأسلاك كهرباء، الشبكة التلفونات ملفوفة بأشرطة حمايـــة صـــفراء، الـــشوارع الدائريّة وأنظمة الطرق السريعة أعادت السيارات من ذات الحجم والموديل إلى مزارها الجديدة.

كانـــت بـــين المنازل مساحات صغيرة نامية أكثر من اللازم في الأمـــاكن الـــتي لا تتصل فيها الباحات ببعض، مماش من تراب صلب، وأمـــاكن ذات صـــحون التقاط المشتركة تندفع شاقّة الفضاء. حرارة غـــريبة، لمعان شمس وضجيج خلف سياج شجيرات البرباريس. إنسان يقـــف هادئاً وسط المرجة الخضراء المضيئة. مشاجرات وشتائم خمدت حـــدّتها مـــثل نفاية في حاوية الحديقة. كآبة مطبوخة في مطبخ. قهقهة

قصيرة الأمد. أصوات تتشبث ببعضها مثل أسنان الدواليب. كلّ شيء يناسب بعضه بشكل مثاليّ، مع ضمان لثلاثين سنة وإمكانية الاسترجاع، ألوان باستيل لطيفة مضادّة للصدمات، أوعية لحفظ الطعام، علب تجميد، أطباق سلطة، تصوّر أن يكون ذلك في متناول اليد بيسر. مكانس غبار. خلاّطات كهربائيّة. مكائن ثقب تقبع في أماكنها الثابتة. أحواض المراحيض تلتمع، المرايا تلتمع، خراطيم سقي الحدائق، أجهزة الإنذار، أجهزة الستيريو، آلات التشغيل عن بُعد، محكمة التركيب وصحّية الاستعمال.

وفوق هذا كله ترتفع السماوات. مروج الأعشاب تبدو كسلسلة من الأحلام المربعة المرصوفة مؤقّتاً، أماكن جريمة معلَّمة بباقات الزهور، وبذور أعشابٍ تمّ رصفها توّاً في التراب. كانت الأرض بنّية ومرخية العنان، وكلّ شيء يفوح برائحة التفسّخ والطين البارد. السماء قنبلة يمكن أن تهوي في أية لحظة وتمحو الحيّ. نشرة الأخبار تعرض في التلفزيون مشاهد لبركان يثور، كوارث، حروب وبشر مدمَّرين. يمكن لذلك أن يحدث هنا. يمكن للحيِّ أن يُمحى تماماً. يمكن للمنازل أن تُنسف وتُترك ظلالاً مجنونة فوق مروج الأعشاب التي لم تخضرّ بعد. كلّ شيء يمكن يذوب، البيوت، الأسفلت، المدفّئات، أكاليل الفانيليا، الشجيرات، مواضع الاختباء، الناس، فبالتأكيد يوجد شيء ما في السماء، وهو يفوح برائحة العرق.

الفصل 17

أن تسير. أن تضع ساقاً على ساق. أن تسير في النسيان. أن تدع الكائنات تختفي واحداً تلو الآخر من الذاكرة. كان يواصل السير. لا شيء آخر يمكنه فعله. منطقة فيستربغو تعتم، نورد ويست تهيمُ من السعادة والأوستربغو تتدحرج. منطقة آما ما زالت برائحتها الشبيهة برائحة الكرنب المطبوخ، العَرَق الحامض وزيت المحركات، بالعجلات الجديدة والقمامة المتفسّخة.

رائحة بائع الخضار، الخبّازين وعربات السجق. بيرة الكارسلبيرغ. حديقة الحيوانات. البحيرات الشرقيّة. لأنّ الأنف مرتبط بالمحيط الخارجيّ، مع روائح كلّ هذه المواد الكيمياوية والجسيمات التي تحملها الريح، مقنوصة بالتنفّس ومتحلّلة في الأغشية المخاطية داخل الأنف. حوامض زبديّة، مادة المِركبتان، كافور، كبريت، أوزون، إنها تتكوّن، تحدث ببساطة، جزيئات الروائح تتراكب إلى إنزيمات، وألياف الأعصاب تنتشر كأعصاب شمٍّ، عناقيد خلايا الحواس تتفكّك وتوزّع الألياف إلى أجزاء أخرى من الدماغ، تمنحها أسماءً، مذاقاً، وتخزّنها كأفكار، ذاكرة الروائح تضمن بقاء شرخاً عبر الزمن.

هنالك على كلّ حال التباسٌ عالق في الهواء، ثمّة فضاء محيط، لجوجٌ اعتاد عليه، وهواء جديد يحتلّ مكانه ويواصل الامتداد حتى جادّة هولمبلاس، شارع إيطاليا ومنه عبر منطقة كريستيان هاون عائداً

إلى المدينــة، خطوة فخطوة وانــزلاق مفاجئ، كتلة بنّية دبقة أسفل قدميه. كان برازَ كلبٍ وقهقهات. تنحّى بعيداً عنه في خطوة مراوغة، وربــطَ عــصبٌ بــسرعة البرق تلك الرائحة بالدخان وبما لا ينبغي حدوثه.

جدّه كان يسمّي ذلك "المرحاض"، جدّته تسمّيه "البيت الصغير". وبعد أن احترق فقط تمّ تركيب "اسحَبْ وافلِتْ" في الممرّ الخلفيّ. كان الجدّ يجلس طويلاً هناك يطالع الصحف، وكان المكان ذا رائحة حامضة بــسبب الغــائط ودخــان الغليون. كان يقع في الحديقة بين أشجار الصفصاف، ليس بعيداً عن قفير النحل.

كان العشب مرتفعاً، باستثناء الذي في الممشى، حيث كان يقود إلى كــوخ الخــشب الصغير. في الداخل كان ثمّة هيكل خشبيّ بمقعدةٍ ذات غطــاء، تُفــتح إلى الأسفل وتحوي ثقباً يؤدّي إلى داخل الأرض. كــان إيكاروس يفكّر في جذل بجبل الغائط الموجود أسفل الثقب، لأنّ الطــرقعة كانــت تستغرق وقتاً طويلاً قبل حدوثها. الصوت والرائحة ينسجان مع بعضهما لوناً ذهبيّاً كثيفاً يزول ثانية بالورق الثخين الناعم الملفوف على بكرة في جانب الجدار.

في العــشب تحت المرحاض كانت تقطن العلاجيم، أجساد ثقيلة مــزوّدة بعــين ناتــئة، كانت بين وهلة وأخرى تتدحرج على جانب الممشى. الثآليل الضفدعيّة تتفحّصه بتسامح قبل أن تتهادى تحت أرضية المــرحاض. عــند المساء، حينما يحل الظلام ويكون الممشى أبعد إلى هــناك، حينما يصير الصوت أعلى وأشدّ حدّة، ينبغي على المرء إيقاد شمعــة بأعــواد الثقاب التي ترقد في طبقٍ فوق مقعدة المرحاض. أعواد الثقاب ينبغي أن تُستعمل في المساء فقط وليس أثناء النهار، وكان الأمر مُغــرياً. حينما تتّقد الشعلة تختفي الصراصير في الثقب، سجادّة تتسع

علـــى امـــتداد الجدار، وفي شفطة واحدة تختفي كلّها في الأعماق، إلى داخل الأرض، صوت متدحرج يتحرّك على سيقان متنمّلة.

أعـــواد الثقاب موجودة هناك أثناء النهار أيضاً. كان يجمع الورق على شكل كرة، تماماً مثلما يفعل الجدّ حينما يريد إشعال الموقد. يمكن أن لا يحـــدث شيء هناك. اللهب الأصفر يضيء بسطوع وقوّة. لكنّه أصـــاب الأجـــزاء الأخرى من الخشب وزحف فوق المقعدة دون أن يـــتوقّف مالئاً الغرفة بدخان كثيف. عَلِقَ المزلاجُ لوهلة امتدّت طويلاً، خـــدشٌ فجّ في الرئتين، والدخان تجعّد تحت السقف، والشعلة الصفراء تصاعدت زاحفة إلى أمام، فقذف نفسه باتجاه الباب الذي استسلم له، فسقط على الأعشاب.

- يا جدّي، المرحاض يحترق!

ضـــرب عمود الدخان قفيرَ النحل. الصراصير خرجت منـــزلقة مـــن الثقب أسفل المرحاض، ورائحة البراز فاحت بعنف على الحديقة والمنازل القريبة، ظلّت عالقة لأسابيع في الهواء قبل أن تختفي.

- جدّي...

- نعم؟

- لقد كان هو الذي فعل ذلك.

- من هو؟

- لا يمكنني أن أقول.

الفصل 18

الجـــادّة كانت بانتظار خطواته في عتمة المساء. فتح الباب المؤدّي إلى الـــشارع، لكـــنه أفـــضى به إلى حيّ ذي منازل متلاصقة وفتيات يتمرأين في الحمّامات لفترات طويلة، يعرفن كلّ نسيجٍ، كلّ ارتعاشة في أجسادهنّ. ومضت الأيام بسلاسة من دون ألم عبر الصالات، لا أحد أبـــدى اعتراضـــه، ثمّة ملاحف نظيفة جاهزة في الدواليب، ضمادات جديـــدة، صناديق إسعافات أوّلية ممتلئة ومطافئ حريق في السيارات. أحـــدهم يطرق رأسه من الخلف على حجر الأرضيّة، آخر يقطع حبال مـــن شنقوا أنفسهم وينـــزلهم إلى الأرض. شخصان يمارسان الحبّ مع بعضهما فوق سرير مائيّ، نبيذ أحمر، شموع وعلب بأدوية طحالب.

الأيّـــام كانت متعامدة، تنتصب مثل جدار فوقه، أو تنقلب على الـــرأس مثل شريحة فلم نصبت بالمقلوب في جهاز عرض الصور. كان أبـــوه يغـــسل سيارة "الغولف" الفضّية. جمعت أمّه خزيناً من الطعام المعلّب. ابتاعا ثلاّجة إضافيّة، فقط لغرض الاحتياط. سياج الشجيرات أزهر بكلمات غامضة. إيكاروس يلعب في الحديقة. سألته فيما إذا كان جائعـــاً. لم يكن جائعاً ولا عطشاناً. كانت ثمّة غمغمة متواصلة تبلغه بأمـــر لا يخصّه، لكنّه فكّر فيما إذا كانت القنبلة ستسقط، عليهم إذن الركض بسرعة، بشدّة، دون تفكير. فكّرْ بشيء آخر.

– نَم الآن، سيتوقّف ذلك بالتأكيد.

كان إيكاروس يلعب في الحديقة، وكانت مستلقية هناك تستحمّ بالـــشمس بنظارات سوداء صغيرة، مشكّلة كعلبتين متقاربتين كي لا تـــؤذي أشعة الشمس عينيها. أمّه تستحمّ بالشمس، وكانت الشمس ســـاخنة لحدٍّ لا يطاق، وكان أبوه يحاول ترتيب الحديقة، ظهره مغطّى بحـــبّات عَرَقٍ صغيرة، أحرق نفايات الحديقة تحت الشمس، فكلّ شيء بإمكانـــه الاحتراق. الدخان تصاعد فوق سياج الشجيرات إلى حدائق المـــنازل الأخرى، ثمّ مضت العوائل في مشوار بعربات الأطفال الجديدة الزرقاء.

عادية كانت الأيّام، الشوارع متصلة بشوارع أخرى لتتوحدّ بعد ذلـــك بين المنازل، ظلال الأشجار منعشة ومستلقية فوق الأرض، كما ينبغـــي أن تكـــون. لم يكن الزمن ساكناً، بل يمضي قدماً بتوافقٍ وفقَ اتفاقـــيّات معقودة، وإذا ما تلفّظ باسمه مرّات عديدة يتوقّف عن كونه يعني شيئاً ولا يصير سوى صوتٍ ساخن في الفم.

ثمّـــة ترانـــزستور يبثّ في مكانٍ ما، وثلاّجة مليئة باللحوم. كان أبـــواه يحـــتفلان وهيّئا السرداب لذلك، واضعين رفوفاً للمعلّبات. يقع الـــسرداب أســـفل المنـــزل، وعلى المرء أن يمرّ عبر بوّابة في خزانة إلى هناك. كان السرداب يفوح برائحة الجفاف ومليئاً بالغبار والكلس، وثمّة سمّ مرشوش للفئران هناك.

مفـــارشُ عديـــدةٌ وضـــعت هناك، كدحا وهرسا الفاصولياء الحمـــراء والبيـــضاء، الأناناس في فلق، كرات لحم مفروم، حساء ســـاخن. علب الطعام مصفوفة في طابور وثمّة مصباح يلقي ظلالاً كثيفة، لكنها كانت تجربة فقط، تجربة بحركة كهربائيّة خفيفة. كان الترانـــزســـتور منتـــصباً يبثّ بين النباتات الخضراء قرب النافذة، صوت مهدّئ.

أيـــام اعتيادية بأصوات منتشرة نائية، أصوات في الراديو، أصوات بـــشعور طـــويلة ترفرف من فوق سارية الإرسال. موجات من شعور وكلمات. الشمس تميل باتجاه النافذة، وكان الوقت صيفاً. الراديو يبثّ في المطـــبخ نـــداءات التحذير ونشرات الأخبار. أكثرها كان نداءات تحذيـــر. صـــوت امرأة هادئة تعدّد الأمكنة التي ينبغي على المرء أن لا يتجوّل فيها.

بالتأكـــيد لم يكن هنالك إنسان حيّ في الراديو. كان أحمر اللون بـــثلاثة لـــوالب من الخلف لا تحتاج سوى أن تفتح فقط ليتمكن لأيّ شـــخص من أن يرى أن ليس هنالك من إنسان حيّ داخل الراديو، بل ترانـــزستورات وهوائيّ وموصّل وقطع خزفيّة ومكثّفات وغبار ورائحة بلاستيك محترق.

لـــيس على المرء سوى أن يدير العجلة ذات الحافة المضلّعة قليلاً لكي لا ينـــزلق طرف الأصبع عنها، حتى يقبل الصخب. أماكن بكثافة غـــير معقـــولة، ثلوج مشعّة، كان الصوت صوت حرب، صوت بشرٍ يتـــضرّعون لأحـــدٍ ما كي لا يقتلهم. الجأْ إلى السرداب واصغِ لإذاعة الـــدنمارك، لا تـــستعمل الهاتف إلاّ عند الضرورة. ذلك أمر اعتياديّ. كانـــت فقـــط تجربة. على مؤشّر المذياع كانت أسماء مدن: لينينغراد، فـــرانكفورت، كالينـــبورغ، زغرب، لوكسمبورغ، فالون، موسكو، أنقرة، هيلفرسوم.

في غمـــرة الضجيج يزقزقُ طيرٌ إلكتروني في غابة من الهوائيّات، غابـــة يـــرى فيها الإنسان بسهولة، حيث لا يجمح شيء أو يبتعد عن بعضه ويختفي. الراديو يقبع عند النافذة بين نباتات خضراء ويبثّ. كان شـــيئاً مهمّاً، ضرورة حياتيّة، لأنّ الإنسان لم يكن يعرف ماذا يمكن أن يحدث فيما بعد.

كانـــت الـــشوارع خاوية لأنّ قنبلة سقطت. لأنّ ثمّة قنبلة – أ، وقنـــبلة – ب، وربمـــا كذلك قنبلة – ت. توجد قنابل وفق الحروف الأبجديّة يمكن للإنسان أن يعيد كتابة العالم بها.

كانـــت تتساقط في الحلم، تتساقط حينما يكون الإنسان نائماً، تتـــساقط عبر نافذة المطبخ، في منتصف نشرة الأخبار تتساقط. ثمّ يحلّ يـــوم آخر. أخيراً يحلّ يوم آخر. يخرج الناس من السراديب باحثين عن أقربائهم. ثمّة بلاستيك ذائب، حجرٌ جدار وأنبوبُ حديد ولبّادُ سقفٍ وفولاذٌ مُكهرَب.

شـــكّلت الأشياء نظاماً جديداً. لم تعد أرقام البيوت تعني شيئاً. الـــسماء قاتمـــة ومطليّة بسائل نفطيّ اللون، ولم يكن ثمّة ضوء في أيّ مكـــان، فقط ومضات شُعَلٍ من المواضع التي ما تزال تحترق. ثمّة مزولة تنتـــصب ســـالمة وســـط حقل أسود مثل بيدق شطرنج. كش ملك. الشمس كفّت عن السطوع.

الأشباح تنسلّ من فراغ إلى فراغ بحثاً عن شيء يؤكل. الأجسام تغيّـــر أياديهـــا، دون صوت وبوحشيّة. كلّ الأشياء الصغيرة في العالم اختفت، بقيت فقط الأشياء ذات الحجوم المعينة. زجاجُ النوافذ الذائب شكّل كتلاً شفّافة. كهرمان ببشرٍ في الداخل. ظلال أحجار. ضباب. كـــان الـــسكون حالكاً وعميقاً ويعتقد أنه سيشتدّ، نغمة جهيرة غائبة مفاجئة. في قلب السكون كان ثمّة وشيٌ ملتهبٌ ممسّد بيد طليقة. عواءُ حيوان مديد ظلّ قابعاً في حناجر ما زالت على قيد الحياة، وإلاّ فإنّ كلّ شيء كان يسوده تقريباً هدوء سعيد.

4

الفصل 1

كانـــت أليس قد انتقلت إلى المنـــزل بعد مرور ستة شهور تماماً مـــن وصول إيكاروس إلى البيت من المستشفى. وقع سريعاً في حبّها. كان ذلك أقلّ ما يمكنه فعله.

لم تكن تنظر إليه بل كان هو الذي يتطلّع إليها. فبالنسبة لها كان المشهد مشتّتاً ولا يعني شيئاً. أمّا هي فكانت بالنسبة إليه مسافة تتلاشى فـــيها نظـــرته، ممرٌّ مبطّن بالمخمل، برهة للشهوة. كان يستيقظ وهو يكـــافح للـــتخلص من الأشياء، يزحف فوقها باتجاه النافذة والناظور المنصوب. إنها في البيت.

كانا يمارسان رقصة مرآيا متعاكسة عبر ممرّ الفناء الخلفيّ. عاداتها كانت عاداته. كان يتابع حركات شرودها الحالم النائية. يتخيّلها تقوم بدور مسرحيّ صغير هناك، أن تقوم بإهماله في تأنٍّ شديد. تركته ينظر إلـــيها. ثمّة تمهيد في حركاتها. كانت تبدو وكأنّ أشياءها وأفعالها تمتلك واجهات فقط، وكأنها كانت مسوّدات لأشياء أخرى.

مـــع مرور الزمن ملأت الأشياء شقّته بشكل كبير، حتى أضحت غـــير قابلـــة للسكنى فيها، وكلّ مشوار من مشاويره في المدينة يُعرقَل بسقوط مفاجئ في الذاكرة الكثيفة. فيما كان قبلاً يستمتع بالتلاشي في أفكار الشوارع ويطلق العنان لقدميه كي تحملاه إلى أيّ مكان تريدان، هـــا هـــو يضطجع الآن ساكناً في فوضى شقته. لم تعد المدينة تعني له

شيئاً. إنه يشعر بالأمان أكثر حين يكون في داخل البيت. نجح في إحراز زاوية حاول أن ينام فيها في البيت، لكنّ نهراً لا نهائيَّ من الروائح، انطباعات ذهنيّة، أصوات، لمسات وشعور بمذاقات مختلفة تجتاح عقله وتجعل من نومه مستحيلاً.

بدلاً من ذلك يقوم بأرشفة ذكرياته. أنشأ أنظمة تجعله في حالة قادر فيها على النسيان. لكنها كانت بلا تأثير، فصرف النظر عنها واحدة بعد الأخرى. ركّز تفكيره على فسح ممرّ بين الفراش والمطبخ. كلّ ما أمكنه أن يدعوه مُلكه اختفى تحت ركام من الأشياء. كان تلفاز الجدّ اللوكسمبريّ القديم يبثّ طوال اليوم محطةً إعلانية تحت الركام. بعد أربعة عشر يوماً فقط استطاع العثور على جهاز التحكّم وأغلق التلفزيون. كان البيانو متشرّباً لفترة طويلة.

ذات يوم، حينما تجرأ على الخروج للتسوّق عثر على لفافة فلم في الميدان. كوداك، ستّ وثلاثون لقطة. تساءل في نفسه عمّا إذا كان ذلك أسلوباً جديداً تستعرض فيه الذاكرة نفسها. لكنّه قرّر على أيّة حال تسليم الفلم إلى ستوديو التصوير لإظهار الصور.

- تعال ثانية غداً.

لكن الأيّام كان من الصعوبة التفريق بينها. أليس كانت مرجعه الأساسيّ الوحيد. في البداية عملَ قائمة لا نهاية لها من كلمات تمثّل أغلب الذكريات التي لا قيمة لها، والتي جعّدها في ذاكرتها وأنشب فيها النار. إلاّ أنّ ذلك لم يجد نفعاً فقد كان ما يزال بإمكانه قراءة الكلمات بين الرماد.

مضت ثلاثة شهور في بناء بهوّ ذهنيّ ذي مرايا متعدّدة وغرف من المفترض أن تحوي مكتبة مؤقّتة للذكريات. صمّم نظاماً من صالات، ردهات، سراديب، مذاخر، خزانات، أدراج وصناديق. بعد ذلك خلق

لغةً مستقلّة عن الأبجديّة، مؤسسة على مشاعر الجسد، سمعه، انطباعاته وشمّه. شَعرةٌ تحرّكها الريح مرتبطة برقم أوّلي خماسيّ، النغمة - أ: رائحة جلد كرة قدم جديدة ومذاق البابونج يمثّل شعوراً بحبال تنسحب عبر اليد. قام بتنظيمها، ربطها مع بعضها، أشاد علائق بينها، ثمّ قام في فكره بتفجير البهو في الهواء. أبصر الانهيار يجري وفق الخطّة المحكمة. لكنّ ذلك لم يجد نفعاً. نظامه الدقيق ما يزال سليماً، الآن أضحت مصائبه مستقلّة ومتعدّدة.

كان يدرك أنّ الإنسان هو ذاكرته، وكذلك أنّ اللغة هي استعراض للذاكرة. كان يدرك أنّ الزمن لا يمكن أن تحيط به ذاكرة، وينبغي أن يكون له مستقبل. لذلك يحتاج إلى الإلهاء. كانت أليس احتماله الوحيد.

ينبغي أن يحدث ذلك الآن. سيكشف عن هويته. سيقول لها الأمور كما هي! ابتاع كتاب "التحولات" لإيفيد من مخزن للكتب عند البرج الدائريّ. بعدها عاد مسرعاً إلى شقتها. كان اسم أليس مكتوباً هناك فوق لوحة أسماء سوداء في الطابق الخامس.

- مَن هذا؟

انبعث صوتها من تلفون الباب، الطراز الحلبيّ، الذي يكاد أن يكون ساذجاً، أبيض الزرقة مثل حجر الكلس.

- إيكاروس.

تلفّظ باسمه، طار محلّقاً إلى خارج فمه، شعورٌ قويّ بالسقوط في فضاء مظلم. تحسّسَ بعد ذلك وزن الكتاب، شعر بنفسه أخرق ومبتذلاً. الدرج يفوح برائحة السمك المشويّ والثياب الرطبة. كانت تقف عند الباب، حميمة ومختلفة عما كان ينتظر.

استلمت الكتاب، شاردة، مبهمة.

على كلّ حال حدث ذلك. دعته إلى شرب الشاي. نعم، تفضل بالدخول. كانت تدرس الطبّ وانتقلت توّاً إلى المدينة.

- هل تلك هي شقتكَ التي هناك؟

ابتسمت. صوتها كان ناعماً، شعرها مفعم ببريق دافئ.

- قدح شاي آخر؟

وحـــدثت الأشياء. من دون تعقيدات. إنها تكشف عن نفسها. هكـــذا مـــثلما هي كذلك. وضعت أليس رأسها على كتفه. أضحت فجأة راغبة بمراقصة الأيادي، شيءٌ دافئ يتحرّك تحته.

مارســـا الحبّ، انـــزلقا تحت اسميهما مثلما على طوف جليديّ. إنها هنا، ممكنة مثل العتمة التي يكافح فيها، مزيجٌ مغوٍ للرعب، الضحك والبكاء الذي يقع في ختام حركاتهما العنيفة.

مـــاذا تـــريد منه؟ إنّه شيء شرعت في تفحّصه. جسمٌ غريب لا يتقـــبله المرء إلاّ بعد أن يضعه في فمه، يتذوقه، يمزقه، يعضّه. إنها تريد المزيد. يجب أن لا يتوقّف ذلك.

إنـــه لتنقيب ما تقوم به، في الأجساد، ردّات الفعل، الصراخات والأصـــوات. طـــرق محدّدة لكي يختفيا فيها داخل وخارج بعضيهما. أيمكن لذلك أن يحدث؟ نعم، يمكن ذلك. هل يمكن؟

ثمّ التـــصقت بـــه مثل صبيّة خائفة، بعدها استلقت وكأنّها تحت ميكروسكوب من لحم. أكثر، أكثر.

استيقظا، وكان اليوم التالي قد حلّ. وخزاتُ ذراعٍ خدرة، وهمست: "تعـــال قـــريباً من جديد". أشياؤها كانت عاديّة، هي التي اختارتها. بين القـــناني الفارغة عند الشبّاك ثمّة عمود فقريّ لإنسان. قطّتها المخطّطة تقبع في الشمس وتنظر إلى الخارج نحو المدينة الحقيقيّة. القطّة تبتسم.

الفصل 2

الشعور بالسعادة يدفع به إلى أمام مثل صديقٍ لعوب كان يمزح معه في الجادّة والآن يلحّ على متابعته وهو يهتف: "يا رجل، كم هو رائع أن أراك"، ويظل يواصل نخزه بشدّة في ظهره.

لم يكن يعرف كم قضى من الوقت وهو يتجوّل، لكن لا بدّ أنّه قد رقص، صرخ وبكى، والناس ينحرفون إلى الجانب المعاكس من الميدان. كان سعيداً في نشوته بعينيها المبتسمتين.

كلّ فتاة في المدينة تمتلك شيئاً من ملامحها، المدينة زهره نادرة تواصل تفتحها، ثمّة وهن، ارتماء، إنها كيمياء سعادة العشق، وكان يسمو كثيراً فوق ذاته، يتوازن فوق حافّة الذاكرة، ويغني ويصرخ، إلى أن يجشَّ صوته من الانفعال. استعاد نفسه فوق مصطبة في إنيورننغ باستيون.

عثر على القصاصة البرتقالية التي حصل عليها من الأستوديو في جيبه وقرّر في نفسه أن يجلب الصور. دفع ثمنها وخرج بعد ذلك بمظروف سميك في جيبه، غيّر طريقه صوب المدينة الصافية المفتوحة.

على مصطبة في الحديقة الملكيّة فتح المظروف. كان يحوي ستّ وثلاثين صورة لأليس بأوضاع مختلفة. ستّ وثلاثين صورة لجسدها. الصور، كما يبدو، ملتقطة في منزلها.

كانت تلبس قميصاً أبيض لا غير، جسدها كان منتعشاً وناعماً، كان يعرف تفاصيله. كانت تحدّق بثقةٍ في عدسة الكاميرا بتعابير منتشية بعفويّة.

كانـــت تفـــتح ساقيها، تجثو على أربع. فوق عضوها كانت ثمّة وحمـــة صغيرة. حدّق إلى عينيها الخضراوين المفعمتين بالشهوة واليدان تتلمسان أزرار القميص. كلّ شيء واضح، الحلمات، العضو، المؤخرة. في الـــصور الأخيرة كانت تجلس بساقين منفرجتين فوق الأريكة على كتاب.

كان ظهر الكتاب مضغوطاً بفرجها المفتوح، كانت تدعكه، فيما شعرها البنّي الفاتح الطويل ينسدل فوق الوجه.

عـــند عـــودته إلى الشقّة مرّر نظرته على كلّ الثنايا، كلّ أجزاء جـــسدها. عثـــر علـــى عدسة التكبير تحت مجلّدٍ سنويّ لمجلة ريدرز دايجست.

وهـــناك في الـــصور الأخيرة، عندما كان ظهر الكتاب مرئيّاً بين الساقين، لاحظ أن الكتاب نسخة من "تحولات" أوفيد.

الفصل 3

- هل أنت نائم؟

ربما كانت تسأل بذلك الصوت الحالم البعيد، وكأنه شيء تردده لآخـــر كان يحلم أيضاً. ربما سيستلقيان على مبعدة قليلة من بعضهما، نـــائمين وقـــت الظهيرة في نُزُلٍ أبيض، حيث يمكن للإنسان أن يصغي للبحــــر أثناء الليل. سيستلقيان هناك في شبه عتمة الباردة، شبه عاريين ومنهكين. العنب والنبيذ الأبيض، أصوات أطفال يلعبون على الساحل تُـــسمع مـــن البعيد. أصواتٌ تتحدث في ذات الوقت بلغة غريبة. لن يكـــون هنالك ضرورة للنهوض من الفراش، بل فقط إطالة حالة الرغبة إلى أبعد ما يستطيع، جزيرة ساموس، ساليمن، منـــزل مؤجّر في جزيرة كابري، لا فرق في ذاك.

أرادت ألـــيس أن تـــتحدث. تريد أن تحكي له قصتها، وتريد أن تجعله ينسى. سوف يضطجعان على السرير تحت الناموسيّة، وكلماتها ستزحف تحت كلماته، وسيبدأ هو بطيئاً بالنسيان. سوف تقول له أن الـــصيف قـــد حلّ، وأن الشمس تسطع من خلال النافذة العليا حيث ســـتهبط منها ذات مرّة. إنها الآن فتاة صغيرة. في النهاية ثمّة باب. إنها تفتح الباب وتلج منه. على الباب ثمّة لوحة: قاعة الدراسة. قامت أمها بلـــفّ شعرها في ضفيرة تشبه الحلزون، ضيّقة قليلاً، تجذب الشعر من جـــذوره، وحـــذاؤها الجلـــديّ الأحمر يعصر أصابعها. تريب، تراب،

تــريب، تـــراب، كان صوت البلاستيك الجافّ وهو يخبط على بلاط المرمر.

قاعـــة الدراســـة. إنها هناك الآن. أليس. دائماً وأبداً. من السهل الـــسير هنا. أبـــي يقول أنه ليس مكاناً للفتيات الصغيرات. إنها هنا، زجاجـــات التعلـــيب تنتصب بمحتواها الأحمر القاتم في الداخل، بذلك الـــذي كـــان حيّاً قبل قليل. تريب، تراب، حذاء جديد. يشعر المرء بالاستغراب من ذلك، لكنّ فضولها كان أشدّ من أن يجعلها تكّف عن ذلـــك. أشـــدّ فضولاً فأشدّ. قاعة الدراسة تتكوّن من سلسلة خزانات ذات واجهـــات زجاجية. كلّ خزانة مصنوعة من خشب قاتم ومضاءة مـــن الأعلـــى بمصابيح صغار. كلّ شيء هادئ هنا. هنا تفوح رائحة حلوى ودخان. المكان بالغ الغرابة هنا.

زجـــاج كبير وصغير، وظائف مفيدة. أشياء كبيرة وصغيرة. ثلج عند الشتاء، شمس أثناء الصيف، مزاج مفعم بالضوء من غبار وزجاج. ســـائل في الـــزجاج كـــان يحيط بها كذلك. ثمّة جنين موضوع داخل الـــسائل هـــناك. كـــان شبيهاً بأرنب أبيض. أمّي لم تكن تحبّ طبخ الأرانـــب، تقول إنها تشبه الأجنّة، والأرنب موضوع على كلّ حال في الفـــرن، وأمّـــي ترفع حرارة الفرن إلى 225 درجة، ابنة أبيها الصغيرة، حبيـــبة ماما، إنها هي أليس الموضوعة في الفرن. ثلج في الشتاء، شمس أثـــناء الصيف. أشياء صغيرة وكبيرة. الزجاجات تتألق ومليئة باللحم الطري، لكنها مولعة بالصوت الناعم للحياة المضيئة. هنا لا يحتاج المرء أن يـــسأل، هـــنا يمكن للمرء أن يرى بحرّية ما يريده بالضبط. هكذا وهكـــذا. خـــذْ راحتك بالنظر. أنظرْ. الألوان ناصعة، حمراء ورماديّة وبنّية. شمس في الشتاء، ثلج أثناء الصيف.

– ما الذي تفكّر به؟

كانت تنوي طرح السؤال ذاته من جديد، لكن لن يمكنه الإجابة عليه. كان يريد من كلماتها أن تملأ دماغه، يريد أن يتلاشى فيها، وكان عليها أن تواصل، كلماتها ستكون مثل ماء بارد ينساب فوق السلالم. كانت تريد أن تقول:

- انتقلنا إلى مبنى مجاور للمستشفى، مبنىً رسميّ، حيث كان أبي يملك مختبراً. كان يقوم بتجارب. أتذكّرُ ذلك مثل زمن ذي مطرٍ هادر، بسياجٍ يحيط به، ينبغي على المرء أن لا يخبر أحداً بذلك، كان مثل صوت يتصاعد بطيئاً في داخلي، وفي النهاية لم يكن بإمكاني سوى فتح فمي للصوت الذي فجّر طريقاً لنفسه عبر حنجرتي، حيوان زاحف ذو ذيل أخضر وجوف مشعر، اختفى بعدها في المرحاض.

- وليس بعيداً عن بيتنا كانت تقع محطة فالك. يمكنني التذكّر أنني جئت وحدي إلى هناك، وأنّ ثمّة عربة إسعاف عاطلة كانت واقفة خلف المرآب. كنت أتقصّى مثل هذه الأمكنة، المنسيّة، المهجورة، المخرّبة والمليئة بشظايا الزجاج والملابس العتيقة المحروقة. جعلتُ من الصبيان يأتون إلى عربة الإسعاف. مثّلنا أدوار الجرحى. كانت لحظات عنيفة، أيام، أسابيع وألماس يذوب في نظراتهم، حينما تكون أجسادهم فوقي تدبّ في جسدي تشنّجات صغيرة.

- أحدهم شقّ المقعد بسكّين، وكان المطاط الإسفنجيّ أصفر ومفتّت. كان ثمّة زجاج في قاع الكابينة يخشخش حينما نتحرك في داخلها. جرح حميم في عتمة ناعمة. لا أعرف كم من الوقت استمرّ ذلك. قدمَ جرحى جدّد، أجساد جديدة، يتوجّب أن يخاطوا أولاً أو تزال أورامهم. لا أعرف عدد الذين قاسمتهم سرّي. كانت عربة الإسعاف النقطة التي تدور حياتي حولها فقط.

- عـــند الليل حلمت بالهنديّ. كان يقبع في صندوق تحت سرير والـــديّ، وكان ينبغي علينا أن نلعب معه أيّام الآحاد فقط، تحت رقابة شديدة من أبـــي. كان الهنديُّ لعبةَ أحاجيّ حقيقيّة من العظام، متركّبة مـــن عظّـــام قهوائيّة لها ثقوب صغار تفوح برائحة طيّبة. كانت عظام الهـــنديّ تحتوي على نتوءات وتراكيب معقدة وأسماء لاتينيّة، هي كما علّمني أبـــي: القحف، الحُقّ، الترقوة.

- حول العظام كان يلتصق اللحم الناعم بقوّة، كانت من الممكن لـــتلك العظام أن تنكسر. كانت مجوّفة وناتئة يحيط بها اللحم. حمّالات للحـــم، مشاجب، حواف، تركيبات مدهشة. لكنّ الكلب ينبغي ألاّ يمـــسك بالهندي بأيّ ثمن، وفي اليوم الذي حدث فيه ذلك لم يتبق منه سوى العمود الفقريّ.

الفصل 4

وذات مكـــان في المستقبل ظلّت تواصل حديثها. كانت تريد أن تــتحدّث وتدع كلماقما تتدفّق. ذلك ما تاقت للحديث عنه. اجتاحته رغبة بالصمت كي لا تزداد ذكرياته. أراد أن يتلاشى في عتمة نسيانها. كلماتها ستكون دثاراً ناعماً يغطّيه، وصوتها سيكون رملاً أسود ورماداً يتناثر حوله، سريعاً ورحيماً. وسيحترق جسده إلى أن يتلاشى، يتفتّت مـــثل مومياء. سيكون فراغاً يواصل صوتها ملأه بالكلمات. سيستلقيان مغلقين مصراعي النافذة ليحجبا عنهما ضوء النهار. سيستشعران المدينة البيضاء مثل صفير بعيد.

هـــناك ستكون أصوات من سفن، من ماء، من زجاج وضحك. ســيكون هنالك ملح على الجلد. سيكون البحر الأزرق المتموّج الذي يغيّر لونه بطيئاً، والليل مليئاً بالنجوم، اليراعات المضيئة ورائحة الياسمين.

ســتكون هنالك رقّاصات في كلّ الحركات. سيكون ذلك الظمأ المطلــق، الـــذي لا يُشبَع. أثار عَرَق فوق الصدور، الظهور. ستكون بــرودة مــساء، نفحـــة مالحة من البحر. ستكون هنالك رحلة قطار للرجوع.

وسيـــضطجعان معاً على السرير في شقتها بكوبنهاغن، وسيمكنه أن يـــرى مكانه الذي يقع في الجانب الآخر من الفناء، وسيحاول أن ينـــسى كـــان ما يمكن أن يوجد هناك، ينسى فوضى الأشياء المهيمن.

سيشعر بطعم خاصّ للاستلقاء هنا وتلمّس جلدها، تلمّس ضوء الشمس وهو يسقط عليها من النافذة ويبصر الأرضيّة المؤطّرة ممتدّة فوق مساحات مسنّنة. الثياب ستصنع كوماً اعتباطيّاً، حيثما تحطّ حينما يفلت الزمام، أحذية، ملابس داخليّة، جوارب. سوف يستشعر كيف تختفي الذكريات، كيف يسترخي دماغه بطيئاً، كيف يلتئم الشرخ، ويستشعر كلّ تلك التفاصيل المصلصلة وهي تتلاشى بين ساقيها.

سيتأمّل حلمتيها النائمتين، جلدها المتوتّر، العضلات المنسابة تحته، ذراعيها، المقلتين اللتين تستقرّان بلطف تحت أوردة الأجفان. سيستشعر أنوثتها وهي تتفتح حتى أثناء النوم. وهكذا سيستمرّ لأيّام، أسابيع.

الجسدان ذاهما سيجدان طرقاً جديدة للقاء، سيجدان مكاناً في بعضهما، خُلدين يزحفان جائلين مفتّشين في الظلمة ذاها. ستفوح رائحة الجنس منهما ولن يتحدّثا، بل يحاولان في البدء أن يتعلما هذه الأبجديّة الجديدة، سيكون ذلك مهمّاً، في غاية الأهمّية. سيكون مزيج من مياههما والعصير، النظام الداخليّ شهوة خالصة. سيكونان نباتين ينموان في فضاء بلا جاذبيّة، أشجاراً تنشر أوراقها حولها، نيراناً محرِقة مستديرة.

ربما سيموتان، يمضيان في التحلّل، يستشعران اللحم وهو ينزلق عن الهيكل العظميّ، الجمجمة. ربما سيقتلان بعضهما إذا استوجب ذلك. سيتحولان إلى قطّتين، مخلوقين ما بعد الموت. سيستشعران السعادة الحيوانيّة الحميمة. وفي كلّ مرة يقتربان فيها من بعضه ستتضاعف المسافة بينهما. متشابكين سينامان كلّ واحد لوحده. سيكونان منيعَين مثلما الآلهة.

الفصل 5

ستهمس له أنهما خُلقا لبعض، وأنها لا تريد أن تعرف مدى صدق ذلك. إنها ذكرياته التي تعود راجعة من الطرف الخطأ. ذكريات المستقبل. لأنها ذات يوم رحلت عنه دون أن تخبره إلى أين و لم يمكنه العثور عليها. بحث عنها في كلّ مكان في كوبنهاغن و لم يعثر لها على أثر هناك.

لا يمكن تحديد عدد الشهور التي قضاها مضطجعاً هنا في الشقة مستعيداً كلماتها. نوافذها كانت معتمة، فقد مضى وقت طويل على اختفائها.

ما هو الإنسان؟ مخلوق مجهّز بدماغ وذاكرة، مستعدّة لنسيان الاختلافات، يمكنه التفكير بشكل مجرّد، ويسير منتصباً في زمن متلاحق.

لم تعد حالته تحتمل التجزّؤ. الأشياء تستولي على شقته، أفكاره، حياته. ليس سوى هذه الفوضى التافهة في دماغه، أجسام موحلة راكدة تتحلّل في تيار الأفكار. لقد فقد كلّ صلاته. هو شيء بحدّ ذاته. من حوله تقبع أجهزة تلفزيون المدينة، مشغلات فيديو، آلات تصوير، أشرطة، كاميرات، مكائن كتابة. لكنه يشعر أن التشبّث بالعالم لا معنى له. إنّه يقبع هنا بالتأكيد.

مع مرور الزمن صار يتخيّل المدينة في الخارج، استدعى المشاوير وأعاد تدريجيّاً تشكيل المدينة بالكامل. كوبنهاغن تقع في دماغه قطعة

قطعة. ماذا سيفعل بهذه المدينة المتعنّتة؟ كيف سيمكنه أن يفلح في معرفة الفرق بين التفاصيل؟ لعل البقاء مضطجعاً أكثر أماناً.

الفصل 6

الـــوقت مـــا بعد الظهيرة. كيف استطاع الوقوف على قدميه؟ الوضع العاموديّ يحسّ به وكأنه خطأ وغير مألوف. طوى ذاكرته على بعـــضها مـــثل شاشة مسطحة. استغرق ساعة كاملة تقريباً كي يفسح لنفسه طريقاً وهو يتجه نحو الباب الرئيسيّ. في الشارع حاول بمشقّة أن يضع قدمه قدّام الأخرى. على المرء أن يكفّ فقط عن التفكير بالكيفية التي سيقوم بها.

الشوارع أنهارٌ ذات جريان اعتباطيّ تماماً. توقّف الزمن عن السير. إنـــه هو الذي يحرّك نفسه مقارنة به. المطر يهطل على المدينة. خيوط رذاذ رماديّـــة تنـــسلّ بعـــيداً من حزمة ثياب سوداء مهلهلة. ترك يده تنـــزلق فوق سيّارة. اليد لا تصطدم بعائق في انـــزلاقها الذي لا يترك أثـــراً فـــوق الطلاء المبلّل. هنالك شيء يكاد يكون إيروتيكيّاً في تلك الملامسة التجريديّة. ليس ثمّة تبعات لذلك. إنّه شيء في غاية البساطة.

شـــارع جوزيف له جانب واحد يؤدّي إلى شارع فريدريكسوند علـــى أطـــراف الشمال الغربـــي من المدينة. إنّه في غاية المجهولية، إلى درجة يسهل على المرء التغاضي عنه، لأنّ الأحياء المحيطة به تبدو مؤقتة. يكـــاد المـــرء أن يكون على يقين من أن الأحياء قد توقّفت في ذروة حركة، أصبحت متحيّرة وواصلت حركتها في اتجاه آخر لكي لا يدير أحد رأسه بعد ذلك من الحيرة.

أخـــذت تعـــصف الآن. ثمّة رجل واقف وهو يصيح نحو الاتجاه المعاكس من الميدان. كان يحمل بيده كيساً بلاستيكيّاً مليئاً بقناني البيرة من السوبرماركت.

- المعذرة، أين تقع الحقيقة؟

رســـم الرجل صورة بيانيّة متخشّبة باتجاه سماء المساء اللازورديّة. هناك فوق سماء كوبنهاغن يوجد حرف ل عملاق أزرق.

لا شيء!

رفـــع إيكـــاروس يديه يائساً وواصل سيره منحدراً باتجاه شارع جوزيـــف حـــيث لم يحدث شيء ذي بال هناك. توقّف أمام "وزارة النسيان". هنا يتوجّب عليه الدخول.

- لا أســـتطيع أن أنـــسى. أنا خائف من امتلاء دماغي فلا يعود مكـــان للذكـــريات هناك. عليّ أن أنتقل من شقتي. أريد أن أستعيد نسياني من جديد.

حـــدّق بـــه الرجل الضئيل ذو النظارة الصدفيّة بعينين متعَبتين، وبإصبع طويل نحيف أشار إلى باب يقع خلف إيكاروس.

- يمكنك أن تراجع قسم الأرشيف.

مضى نحو مبانٍ منخفضة، حيث كانت لوحة تحمل "منيموتكنيك أ ب س" مـــضاءة بحروف نيونيّة فوق الجدار. أربعة بيارق مثلّثة رمادية قذرة ترفرف من أربع ساريات أعلام متجانسة.

المطـــر يـــزداد كثافة. على لوحة نحاسية مكتوب "أرشيف وزارة النسيان". تبع اللوحة ودخل أحد المخازن المنخفضة.

ذات الـــرجل الضئيل ذو النظّارة الصدفيّة. كان يقف ورزمة في يده. انحنى فوق الرزمة وكتب بحروف كبيرة خرقاء: "اسمعْ هنا". ترك يده بسرعة تنـــزلق في جيب المعطف وسحب منه جهاز تسجيل.

- لا أســـتطيع أن أنـــسى. أنا خائف من امتلاء دماغي فلا يعود مكان للذكريات هناك. عليّ أن أنتقل من شقتي. أريد أن أستعيد نساني من جديد.

كـــان ذلـــك صوت إيكاروس، لكنّه بدا مشوّهاً. ابتسم الرجل ونظر نحوه بإلحاح وكأنه يخفي معلومةً ليس بوسع إيكاروس مشاطرته إيّاها. أشار ثانية بإصبعه الطويل النحيف.

- يمكن لحضرتك أن يجد الطريق!

مضى الرجل واختفى خلف أحد أبواب الطوارئ مطلقاً ضحكة جافّـــة ســـاخرة. بالتأكـــيد إنّ جميع الرفوف فارغة. الهياكل المعدنيّة اللانهائـــيّة تمتدّ من الأرضيّة إلى السقف. سطوحها كلّها مغمورة بطبقة كثيفة من الغبار لا يُعتقد أنها يمكن أن تكون أكبر.

صـــرف النظر عن الموضوع ومضى يسير في الشارع من جديد. كـــفّ المطـــر عن الهطول. نظرَ إلى الأعلى، سماء زرقاء، وفي نافذة في الطابق الرابع ثمّة لمحة من وجه فتاة. نافذة تُفتح. أليس؟ في اللحظة ذاتها خطرت بباله فكرة. بالتأكيد، هكذا يتوجب عليه أن يفعل!

في طريق عودته إلى شارع فريذريكسوند عثر بسرعة على ما كان يـــبحث عنه. إنّه لمحظوظ. بائع الخردوات كان لطيفاً، عاد بصحبته إلى الشقّة في عربة. بعد أن تعاونا على فتح الباب ألقى بائع الخردوات نظرة محترفة حول الفوضى المنتشرة.

- نعـــم، ليس هنالك الكثير مما يمكن استعماله، لكنني سأعطيك مقابلها ألف كرونه. إذن سيكون مساؤه أسعد قليلاً.

هـــزّ إيكاروس رأسه موافقاً. مساء سعيد. بعد وقت قصير شرع اثنان من المعاونين بحمل الأشياء إلى الأسفل في شاحنة نقل كبيرة بيضاء مكتوب عليها "ممتلكات موتى للبيع".

الفصل 7

كان المساء على وشك الحلول. مساء سعيد. مدينة الملاهي تقبع مثل مربع معتم أمام فندق الساس، البناء ينتصب مثل دعامة عملاقة مشرفة على المدينة. شرعت المتاجر بالإغلاق، المطاعم والمقاهي مُلئت بالناس، الفوضى المهيمنة مشدودة إلى بعضها بنسيج كثيف من الأسباب والتأثيرات.

الـــشمس غربت. السماء صافية. التاكسيات تنساب إلى أمام في إيقـــاع هادئ، الناس يتدفقون إلى داخل وخارج الباصات ويتوزعون على القطارات أو السيارات في طريقهم إلى خارج المدينة باتجاه الطرق المدمدمة. خارج ضاحية آما تبدو طائرة تتهيّأ للهبوط في شريط مضيء طويل. عربات القطار تنـــزلق خارج المحطة الرئيسية للعاصمة، القطار السريع يشقّ طريقه عبر الضواحي، عمود فقريّ يربط المدينة بأعضائها الأساسيّة.

ثمّـــة أضواء تنبثق من البيوت، حقول صفر باتجاه الأزرق الغامق. السيارات تتوقّف ثمّ تواصل الحركة من جديد. الناس تتبع برامج دقيقة، تحـــشو أجهـــزة، تطبّق خطّة السير، نظامٌ من أياد وعيون وعقول دافئة تنجـــز بجـــلاء تلـــك الأعمال المنطقية. أنهارٌ من أجساد توزّع نفسها بعشوائيّة في جميع الاتجاهات.

نظـــام مركزيّ عملاق لا يستطاع سبر غور تعقيده، لكنه يدعم نوعاً من الوعي، مدينة حيّة يملأها سائل الظلام المخدِّر، ومضات ضوء،

أحمــر، أزرق. الأصوات تعلو في الشوارع. الناس ينطلقون بسياراتهم بعـيداً، آخرون يأتون. مسارح، سينمات مملوءة، فارغة. نسيجٌ مفكّر مــن وجــوه وأجساد تملأ الفضاءات بقهقهات وكلمات. إنّه المساء، والمدينة ملأى بالأشياء الحقيقية، كما هي.

جلــس في مطعــم فندق الساس في الطابق 20. إنه مساء سعيد. طلب خمسة أطباق من لائحة الطعام، نبيذاً، قهوة وكونياك. أكل ببطء وكان الزبون الأخير في المطعم. تطلّع النادل إلى طاولته.

- نحن على وشك الإغلاق.

كــان الحــساب 991 كرونة على الفاتورة، فوضع ورقة الألف كرون في العلبة المفضّضة الصغيرة.

الفصل 8

حـــان وقت الإغلاق. إيكاروس يترك نظراته تنـــزلق فوق أخيلة المدينة المفحّمة. ثمّة مكان يحرق العين بضوء أصفر وأبيض. إنه منـــزل يحترق. المنـــزل الذي توجد فيه ذاكرته. شرع بالعدو، باتجاه الممرّ، نحو السلّم، نحو الشوارع التي يعرفها عن ظهر قلب.

كان باب الشقّة مشرعاً. النار تضطرم. تتقافز من طابق إلى آخر. دعـــائم السقف تتهشّم، الأرضيّات تنخسف، النوافذ تتفجّر في خضمّ الحرارة المسعورة.

الـــنيرانُ مـــياهٌ تبـــتلع كلّ شي، تتدفّق إلى الأعلى، ألسنةُ نمورٍ تلعقُ السماء. الشُّعَل تتراقص، تصرخ، تطلب المزيد. هي - هي - نحن - نطير. تقف على الجدران متهيّأة للوثوب، تتوق للتخلّي عن معادها المادّية، تعيش فقـــط في هذه الغطسة الفاقدة الشعور في الهواء. ابتعدْ "نحن قادمات، نحن قادمـــات"، تصيح ألسنة اللهب لبعضها البعض، لا تستطيع أن تنتظر، الآن سيحدث. ابتعدْ. إنها تلتهم كلّ شيء، تطعم نفسها بنفسها.

المـــاء يطرطش فوق جدار لم يعد يربطه شيء بالجدران الأخرى. إيكـــاروس يتمنّى لو أنه يستطيع القفز في الماء، يشرب كلّ قطرة منه. جلد وجهه يتقلّص. الدخان كثيف ويتكاثف أكثر ليصير شُعَلاً جبّارة بـــرتقاليّة. أحجـــار الجدران ودعائم الخشب تقوّضت. صرخات من الجادّة. أحدهم يبكي.

كانت أليس واقفة على الأرضيّة في الشقّة. أقبلت الآن باتجاهه. شعرها الطويل ألسنةٌ من اللّهب. ثيابها تحترق. قطّتها تعدو على الأرضيّة وكأنّها تحاول قنص شيء ما.

للنيران وجوه مهتاجة كذلك، أذرع معقوفة، خطوات تعدو مسرعة باتجاه الممرّ، محادثة متشنّجة، أصوات جافّة عاموديّة.

أمسكت النار بكلّ شيء. انتشرت بأسرع مما يستطاع اللحاق بها. في الجادّة عند الأسفل يقف أحد مُشعلي الحرائق ليتأكّد من أنّ كلّ شيء يسير كما ينبغي.

الشمس تسطع في الليل. صوتٌ يصيح بشيء ما في مكبّر الصوت. رجالُ الإطفاء يتحرّكون حول المكان مثل رجال الفضاء في مخيّلة طفل.

بعدها انسحبت أليس مبتعدة عن الأحمر، الأسود، عن الدخان وألسنة النار، القطّة تحترق.

كان الناس يقفون متحاشدين في الجادّة. يحملقون نحو الشخصين اللذين يحترقان فوق.

بحر اللّهب، ذلك البحر الحميم الأزرق يقبل نحوهما. الجلد ينسلخ عن الأذرع، وفي الفناء كان رجال الإطفاء يبسطون شبكة النجاة.

الحرارة والماء.

الشمس تسطع.

تخيّلْ أنّ الحرارة يمكن أن يكون بهذه الشدّة. ذراعاه تذوبان. كان يحلّق في الهواء. بدا الهواء منعشاً، إنه يهسهس، يئزّ، هوووه، سسسيووو.

ينبغي أن يكون ذلك هو البحر، يستطيع سماعه، ينبغي أن يكون جسد أليس، يستطيع الشعور به ملتصقاً بجسده.

يـــا له من هبوب هذا اليوم. الغيوم مستعجلة، إلى أين تقصد في هذه العجالة؟

الشمس تسطع.

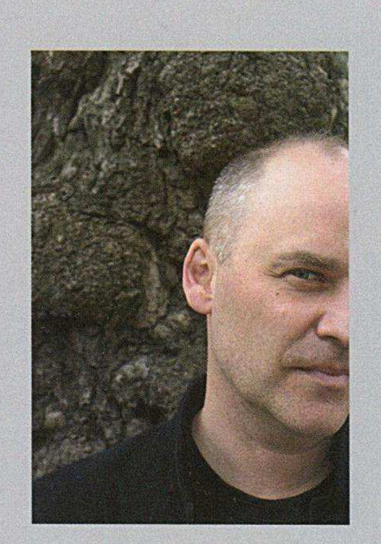
الماء ينعش.

أليس؟ ها هي!

ماذا يفعل كلّ هؤلاء الناس هنا؟

تعال، نحن نطير.

مورتن سونجورد



شاعر، روائي، ومترجم دنماركي ولد عام 1964، أنجز دراسته الأدبيّة في مدرسة الكتّاب ثمّ أحرز بعدها شهادته العالية في علم الأدب من جامعة كوبنهاغن عام 1995. أصدر العديد من الدواوين الشعريّة والروايات ويعدّ إسماً بارزاً ومجدّداً في الوسط الثقافي الدنماركيّ منذ أن أصدر مجموعته الشعريّة الأولى (صحراء في اليدين) عام 1992.

أثمرت دراسته حول العلاقة بين الصوت واللغة عن العديد من الأعمال الموسيقيّة الشعريّة التي أذيعت من راديو الدنمارك، كما ترجمت أعماله الى العديد من اللغات العالميّة، صدرت روايته هذه التي تترجم لأوّل مرّة الى العربية في عام 2000.

لوحة الغلاف: شريف جمعة
sharifjuma@hotmail.com

تصميم الغلاف: سامح خلف





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com





ISBN 978-9953-87-993-2
9 789953 879932